قواعد الخطابة وأُصولها

في بعض خطب آل البيت عليهم السلام

الشيخ عبد الهادي الطهمازي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تمر الخطابة بعامة والخطابة الحسينية خاصة بمرحلة حرجة، ومنعطف خطير، منذ وفاة عميد المنبر الحسيني الشيخ أحمد الوائلي (طاب ثراه)، وغدا المستوى الفني والأدبي للخطب في تراجع مستمر، فضلا عمّا تعانيه مضامينها من تكرار للموضوعات، وتشتتها، وسطحيةٍ في معالجتها، وتفشي استعمال اللهجة والتراكيب العامية على ألسنة الخطباء فيها، ناهيك عن غياب أبسط القواعد النحوية والبلاغية.

ولا ألقي باللائمة في ذلك على الخطباء وحدهم، بل يتحمل مثقفو الأمة وأدباؤها، ومعاهد إعداد الخطباء جزء من المسؤولية، وذلك لغياب المناهج العلمية السلمية في إعداد الخطباء، وندرة البحوث والدراسات في فن الخطابة وقواعده.

إن الخطابة فن من الفنون تشترك عوامل متعددة في تطويرها وتنميتها مضمونا وأداء، إلا أن أهمها أمور، الموهبة الشخصية، فإن

ممارسة الخطابة وإقناع الجمهور موهبة ينالها البعض هبة ربانية ويحرم منها آخرون، والثاني: مجموعة القواعد والأصول الموضوعة لهذا الفن والتي لو روعيت لتحسن مستوى الأداء لدى الخطيب.

والثالث: جودة المعلومات التي يقدمها للجمهور، أو ضحالتها، فالخطيب المطَّلع الذي يمدُّ الجمهور بمعلومات جديدة، غير الذي يكرر معلومات يعرفها السامعون، والخطيب الذي يلقي خطبته بطريقة فنية، معبرة وموحية، غير الخطيب الذي يسرد المعلومات سرداً.

واستكشاف هذه الطرق الفنية وتقنينها، يتم عن طريق تحليل الخطب المؤثرة، ولم نرَ أفضل ولا أشد تأثيرا في الجمهور من خطب آل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لذا تناولنا في الدراسة خمسة خطب من خطبهم، واحدة للنبي صلى الله عليه وآله، وأخرى لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وثالثة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام، ورابعة لولده الإمام زين العابدين عليه السلام، وخامسة لبطلة كربلاء

مولاتنا زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام، ولم نتعرض لمضامين أغلب هذه الخطب، فالدراسة غير مخصصة لمعالجة المضامين، بل عرضنا لأهم خصائصها الفنية، في محاولة لاستنباط مجموعة من القواعد والأصول، عسى أن تكون معينا للخطباء الكرام في ممارستهم للعمل الخطابي.

عبد الهادي الطهمازي

قم المقدسة: ٥ ذي الحجة، ١٤٣٠هـ

تمهيدات

١ـ أهمية البحث:

قد لا أكون مجانباً للصواب إن قلت إننا أكثر المجتمعات ممارسة للخطابة، وأقلُّهم تنظيرا فيها وكتابة، فمنذ بضعة شهور وأنا أتنقَّلُ بين الكتب التي تتحدث عن فن الخطابة، سواءً المتخصصة منها في هذا المجال، أو التي تتحدث عن النثر والأدب عموماً، وعادةً ما تكون الخطابة أحد موضوعاتها، لعلّي أخرج بتصوُّرٍ ما عن هذا الموضوع.

فاكتشفت إن نسبة مشاركتنا نحن أتباع مدرسة آل البيت (عليهم السلام) في هذا الحقل نقداً، وتنظيراً، وتقنيناً لقواعدها وأصولها لا يتجاوز ١٠ ٪ ـ حسب حدِّ إطلاعي ـ على أكثر تقدير.

فجلُّ الكتابات في هذا الحقل إما أنها كُتبت على أيدي رجال

من أتباع الديانات الأخرى، كنيقولا فياض، وإيليا الحاوي، ودايل كارنيجي، أو من أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، كأحمد الحوفي، والشيخ محمد أبو زهرة، وعبد الجليل شلبي، ومحمد طاهر درويش، وعبد الحي الحوسني، وشوقي ضيف والعشرات غيرهم.

والنتيجة التي خرجت بها من تلك الكتابات والبحوث إهمالها الواضح للخطابة في مدرسة آل البيت (عليهم السلام) الذين هم صنو القرآن وتراجمته إلا ما ندر. بل وحاول البعض منهم أن يوحي للقارئ بالتساوي بين أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطابته، وبين خطب غيره نزولاً بها إلى مقارنتها بخطب الحجاج، وزياد بن سميَّه، كما حاول البعض الآخر الحطَّ من شأن نهج البلاغة بنفي نسبته إلى الإمام علي (عليه السلام)، وأدَّعى إنه منتحلٌ عليه.

أما شأن الخطابة في الغرب، ففي الجامعات الأمريكية مثلاً، كان هذا الفن ومعه فن الإقناع الذي هو أحد أهم أسس وعناصر

الخطابة يدَّرسان كملحقٍ لدرس الانكليزية، لكن سرعان ما تحوَّلا ومنذ زمنٍ بعيد إلى درسٍ مستقل وخصص لتدريسه خمسة آلاف أستاذٍ فكتبوا في هذا الفن ـ الخطابة والإقناع ـ آلاف الكتب!!

ولو لم يكن موضوع الخطابة من الخطورة والأهمية بمكان، لم يولهِ هؤلاء كلَّ هذه الأهمية، ويبذلوا في التنظير له كلَّ هذا الجهد، وينفقوا كلَّ هذه الأموال، فكم كان يتقاضى هؤلاء الخمسة آلاف أستاذ من المال؟

فعلى هذه الخلفيات جاء هذا البحث المتواضع علَّهُ يكون حافزاً لأصحاب الأقلام الشريفة، والأفكار النيرةِ لإثراء المكتبة الشيعية بمثل هذه الكتابات، ومن الله نستمدُّ العون والتسديد.

٢ ـ تعريف الخطابة وأهم عناصرها

الخطب في اللغةِ يعني الشأن والأمر صَغُر أو عظم، والخطابُ والمخاطبة: مراجعة الكلام. والخطبة اسم للكلام الذي يتكلَّم به

الخطيب[١]، قال الراغب الأصفهاني في المفردات: الخطبة بالضم تختصُّ بالموعظة[٢]، وخطب خُطبةً وخطابةً: وعظ[٣].

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعانٍ كثيرةٍ مثل: حسم الخلافات وفصل الخصومات، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٤]، كما وردت بمعنى الغلبةِ في المجادلة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[٥]، ووردت بمعنى الشأن والقصد، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾[٦]، ووردت بمعنى المراجعة في الكلام، وهو الأكثر في لغة العرب، قال تعالى: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[٧]،

(١) لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور (مادة خطب).
(٢) المفردات في غريب القرآن: محمد بن الحسين الراغب الأصفهاني: مادة خطب.
(٣) المنجد في اللغة والأعلام: مادة خطب.
(٤) ص: ٢٠.
(٥) ص: ٢٣.
(٦) طه: ٩٥.
(٧) هود: ٣٧.

ولعلَّ منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾(١).

أما في الاصطلاح فلها تعاريف كثيرة:

منها: إن الخطابة هي «**فنٌّ مشافهة الجمهور وإقناعُه واستمالته**»(٢).

ومنها: «**إنها ملكة جعل الآخرين يشاركوننا آرائنا وطريقة تفكيرنا في شيءٍ ما وإيصال عواطفنا الخاصَّة إليهم**»(٣).

ومنها: «**فن مخاطبة الجماهير، بطريقة إلقائية، تشتمل على الإقناع والاستمالة**»(٤)، كما عرَّفها المناطقة أيضاً، كابن ميثم البحراني، قال: «**صناعةٌ يتكلَّفُ فيها الإقناع الممكن للجمهور فيما يُراد أن يصدِّقوا به**»(٥).

والملاحظ أن هذه التعريفات تشترك في جعلها للخطابةِ أسساً،

---

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) فن الخطابة: الدكتور / أحمد الحوفي: ٥.

(٣) في بلاغة الخطاب الإقناعي: الدكتور / محمد العمري: ٩ (الهامش).

(٤) الخطابة وإعداد الخطيب: الدكتور / عبد الجليل شلبي: ١٣.

(٥) شرح نهج البلاغة: ميثم بن علي بن ميثم البحراني: ١: ٦.

وعناصر، منها: الإقناع، ومنها: إثارة العاطفة، أو إشراك الخطيب للجمهور في عواطفه، بالإضافة إلى المشافهة، وحضور الجمهور، فقد كان الخطباء العرب الأوائل يستحسنون أن تكون الخطبة في يوم الحفل[1] أي في محفل، وهو تجمُّع الجمهور في مكان واحد، ولنترك التوسُّع في هذا المجال تجنُّباً للإطالة.

هل للخطابة قواعد وأصول؟

الخطابة شأنها شأن الفنون الأخرى كالبلاغة ـ مثلاً ـ علمٌ وفن، فهي علمٌ؛ لأنها تتضمَّن مجموعة من القواعد والأصول والنظريات، وهي فنٌّ: حينما تتحوَّل تلك القواعد إلى تطبيقات ينتهجها الخطيب في خطابته، وفي هذا الضوء يكون فن الخطابة هو: ممارسة الإلقاء الخطابي، وتطبيق الأصول النظرية في الخارج، وأداؤها بصورةٍ صحيحة.

ويبقى مهمَّاً أن نعرف من أين تُستنبط هذه القواعد والأصول؟

إن ذلك يتم عن طريق تحليل خطب كبار الخطباء، ودراستها

(١) البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ: ١: ٨٣

بشكل دقيق؛ لاستنباط الأصول العامة منها للخطابة الناجحة، وبهذه الطريقة تتقوَّى الخطابة، ويتزوَّد الخطباء من تجاربِ سابقيهم، وتنضج مواهبهم ويقفون على خصائص خطب الخطباء المبرزين، وما في خطبهم من دقائقَ وأسرار.

٣ـ دور الخطابة في حياة الأمم والمجتمعات

للخطابة دورها الكبير في حركة الكلمةِ في عقل السامع، وقلبه، والواقع؛ وذلك من خلال تأثيرها الإيجابي أو السلبي عليه؛ لأنها تتعامل مع الإنسان بهذه المستويات الثلاثة، «**العقل: هو الضوء الساطع الذي ينير درب الحياة، ويميِّز الصلاحَ من الفساد، والصراط المستقيم عن الطريق الأعوج**»[1]، والعقل بلا شك «**يتزوَّد من موضوعات الخطابة المعلومات، والأفكار، والعقائد، وأسس التربية الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية؛ فالخطابة من هذا الجانب مصدرٌ مهمٌ من مصادر التعلُّم**

(١) البيان وفن الخطابة: الشيخ محمد تقي فلسفي: ٣٧.

والتعليم»[(١)]. ثم يتوغَّل الخطيب بمعلوماتِهِ هـذه مـن عقـل السـامع ليخترق بها روحه ويسكنها في قلبه ـ مركز الأحاسيس والعواطف ـ حتى يدعه عاشقاً، ومحباً لتلك الفكرة أو الرأي، ثم لتجد طريقهـا بعد ذاك إلى التطبيق في الواقع.

«فلإثبات وجود الله تعالى ـ مثلاًـــ اسـتثمر الأنبيـاء قـوَّة العقل في الناس، واسـتخدموا العواطـف والأحاسـيس لأداء التكاليف الإلهية، والقيام بالواجبات الدينية»[(٢)].

إذن فالخطابة تؤدي وظيفتين: وظيفة التعليم، والتثقيف، والتربية وغيرها بحسب مضامين الخطب، ووظيفة التـأثير المباشـر لتحريـك السامع ليجسِّد تلك المضامين في الواقع.

ولهذا كانت حاجة الدعاة وأصحاب المبادئ وغيرهم للخطابـة كبيـرة، إذ يسـتطيعون تحقيـق أهـدافهم بهـا أكثـر ممـا يسـتطيعون تحقيق تلك الأهداف في غيرها مـن الصـناعات القوليـة، خصوصـاً

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب: إيليا الحاوي: ٩.
(٢) البيان وفن الخطابة (مصدر سابق): ٣٧.

مع القطاعات الواسعة من «**الجمهور الذي تتحكَّم به عواطفه... وبتهرهُ العبارات البراقة، وتقنعه المظاهر الخلابة**»[١].

«**فالخطابة في الإقناع أنجح من غيرها، وفائدتها تقرير المصالح الجزئية، وقد تفيد أيضاً في تقرير القوانين الكلية لتلك المصالح كالعقائد الإلهية، والقوانين العملية، وهي عظيمة النفع جداً**»[٢].

والحاصل: إن وظائف الخطابة هي الدفاع عن الرأي، وتنوير الرأي العام، واطلاعهِ على القضايا المختلفة، والتحريض على الفضائل والكمالات، واجتناب الرذائل، وإثارة مشاعر الجمهور، وتحريك ضمائرهم، وباختصار إعداد النفوس لتقبُّل ما يريد الخطيب أن تقتنع به تلك النفوس[٣].

٤ ـ ضرورة التتلمذ في الخطابة

---

(١) المنطق: الشيخ محمد رضا المظفر: ٣:٣٣٧.
(٢) شرح نهج البلاغة: ابن ميثم (مصدر سابق): ١: ٦٠.
(٣) انظر: المنطق (مصدر سابق): ٣:٣٣٩.

من المتفق عليه إن الخطابة فن «**والفن نشاط إبداعي يستخدم وسائل مادية، وغير مادية للتعبير عن الأفكار، والعواطف، والمشاعر الإنسانية**»(١)، والخطابة لا تخرج من هذا الإطار، فمن تجيش به الأحاسيس يعبر عنها بكلمات مصوِّرة لما يحسُّ، وإذا ما أثيرت عواطفه عبَّر عنها بالكلام، وهكذا الشاعر والرسام وغيرهم من أهل الفن. ولكن من الواضح أيضا إن هذه التعبيرات تحتاج إلى توفر موهبة، فكما لا يسع جميع الناس أن يكونوا رسامين، وشعراء، كذلك لا يسعهم جميعا أن يكونوا خطباء ما لم تتوفر فيهم الموهبة أو الاستعداد الفطري لتلك الممارسة، «**والموهبة: سمات ـ خصائص ـ معقدة تؤهل الفرد للإنجاز المرتفع في بعض المهارات والوظائف**»(٢)، فمن دون الموهبة لا يمكن لأحد أن يكون مبدعا في فن ما من الفنون.

---

(١) ماهية الفن: مصدق الحبيب، مقال منشور على الانترنت.

(٢) الموهبة والموهوبون: الدكتور: مسعد محمد زياد، مقال منشور على موقعه الشخصي.

ولكن، هل تكفي الموهبة وحدها للإبداع في ذلك الفن؟ وبتعبير آخر: هل تكفي الموهبة في الخطابة؟ أم أن هذه الموهبة ـ إن كانت موجودة ـ افتقرت إلى التتلمذ على خطابة الآخرين، ودراستها، والتأمل في عناصرها الفنية لصقل تلك الموهبة وتنميتها؟

والجواب: بالتأكيد لا غنى للخطيب عن الحاجة للتتلمذ على خطابة من سبقوه من الخطباء، خصوصا المشهورين والمبدعين منهم، لينحت على منوالهم، ويستفيد من تجاربهم، ويقف على أغراضهم، وأساليبهم الإقناعية، والبلاغية، وتراكيبهم اللغوية، وما سوى ذلك مما له دخل في تعميق أثر خطابته في الجمهور، وفي تنمية موهبته في الإقناع والاستمالة.

ولقد كان العرب القدماء يعلِّمون صبيانهم فنون الخطابة وأساليبها، وربما كانت تلك القواعد والأساليب مدونة عند بعضهم كما تدل هذه القصة التي ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين، قال:

«مرَّ بشر بن المعتمر[١] بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلِّم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم إنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة[٢]، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه، وكان أول ذلك الكلام: خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك[٣]، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الأخطاء، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم إن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك

---

(١) بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي فقيه معتزلي مناظر، مات سنة ٢١٠ هـ وتنسب إليه الطائفة البشرية.

(٢) النظارة هم الجمهور الذين يحضرون لاستماع خطبة الخطيب.

(٣) يريد أنه يجب على الخطيب أن يفكر فيما يريد أن يقوله للناس على منبر الخطابة.

الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، والتكلف والمعاودة[١]**، ومهما أخطأك (اللفظ والمعنى) لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعُّر، فإن التوعُّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك... »**[٢].

وهكذا يسترسل بشر في توجيه النصائح لمتعلمي الخطابة في تخيُّر الألفاظ والمعاني حتى قال: «**فلما قرأت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان**»[٣].

ولاشك أن التتلمذ على خطب آل البيت (عليهم السلام) غنيمة عظيمة، لأنهم معدن العلم، ومهبط الوحي والتنزيل، ومنْ تفجرت الحكمة من جوانبهم، وانطلقت ألسنتهم بالفصاحة والبلاغة، بل لم

---

(١) يريد أن الخطيب إذا لم يعد للخطبة إعدادا جيدا سيكون يومه طويلا وهو كناية عن الصعوبة التي سيواجهها أثناء إلقاء الخطاب وسيبذل جهدا كبيرا في سبيل إقناع سامعيه.

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ: ١: ٩٥.

(٣) م: ن.

يسن الفصاحة للعرب غيرهم، ومن هنا على الخطيب الجاد أن يقرأ خطب النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ففيها الكثير الكثير من أصول الخطابة الناجحة وقوانينها، وكانت على يديه صلى الله عليه وآله فتوحات في هذا الفن كما سنرى بعد قليل، وكذلك خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو سيد البلغاء والمتكلمين **«وفارس البلاغة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله بلا منازع، فلقد شقَّ (عليه السلام) للأدب طرائق، ومهَّد للبلاغة سبلا، وأتى بما يقرب من المعجز في البيان، في ألفاظ فخمة، ومعان بديعة لم يسبق إليها، ولغة رصينة متينة، تدلُّ على عمق ودراية، وفهم مكين لأسرار العربية، وإحاطة بشاردها وواردها، وقدرة فائقة على حسن استخدامها وتطويعها في التعبير البليغ، والبيان الساحر، واللفظ الموجز، والمعنى المبتكر البديع، مع إصابته للغرض، وبلوغه منتهى الغاية في بروز الفكرة، وإجلاء المعنى لدى السامع والقارئ**

على حدٍّ سواء»[١].

والباقين من أئمة آل البيت (عليهم السلام)، وخطب السيدة الزهراء وبناتها عليهن السلام ليقف على العناصر الفنية في خطبهم، ويتلمس أساليبهم البلاغية، ويتعرَّف على مراميهم ومقاصدهم ووسائلهم في الوصول إليها، وقد كان ذلك قديما دأب الخطباء والكتاب والشعراء، روي عن عبد الرحيم بن نباتة [٢] الخطيب المعروف أنه قال: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مئة فصل من مواعظ عليٍّ (عليه السلام)[٣]، وقيل لعبد الحميد الكاتب[٤]: ما الذي خرَّجك في البلاغة؟ فقال: حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت[٥].

ولا يكفي مجرد الحفظ للخطب وترديدها على مسامع الناس،

---

(١) أدب الخطابة الدينية: د/ عبد الرحمن عيسى: ٣٦.

(٢) عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي، خطيب حلب زمن سيف الدولة الحمداني، وممن عاصر المتنبي الشاعر، توفي سنة ٣٧٤ هجرية.

(٣) من بلاغة الإمام علي (ع): عادل حسن الأسدي: ٥٥.

(٤) كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وأستاذ ابن المقفع.

(٥) من بلاغة الإمام علي (مصدر سابق): ٥٥.

بل لابد من التأمل في تلك الخطب، واستخلاص خصائصها الفنية، والبلاغية، والأساليب الإقناعية التي استخدمها الخطيب، لتكون معينا ومنهلا يستعين به الخطيب في خطابته.

نماذج من خطب آل البيتعليهم السلام
وأهم عناصرها الفنية

١ـ خطبة الوداع للنبي الأعظمصلى الله عليه وآله

لاشك إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان الخطيب الأول في العصر الإسلامي بحكم طبيعة وظيفته المقدَّسة، فهو الداعي إلى الله بإذنه، والهادي، والمبشِّر، والنذير، وهذه المفردات تتطلَّبُ بطبيعة الحال وسيلةً إعلامية يتواصل بها مع الناس، ولم تكن هناك من وسائل لنشر قيم ومبادئ الإسلام، وتعاليمه إلاّ الشعر، والخطابة وبعض الفنون الأخرى كالجدل، وإقامة الحُجَّة (البرهان)، ولعلَّ أفضل ما يناسب مقامه الكريم، هو الخطابة وأختيها لا غير قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١].

«**فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة، والموعظة، والجدال بالترتيب على ما اصطلحوا عليه في فن الميزان بالبرهان، والخطابة، والجدل**»[٢]، وقد نقلنا لك ما عن الراغب من أن الخطابة تعني الموعظة، وقال تعالى في شأن الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[٤]، فلم تكن لديه إلا الوسائل الثلاث: البرهان، والجدل بالتي هي أحسن، والخطابة، وقد كان صلى الله عليه وآله يؤدي بخطبهِ المباركة، تعاليم الإسلام بأسلوب عاطفي، مصحوب بجرسٍ يقترب فيها إلى الشعر وما هو بالشعر، مما كان يُحرِّكُ مشاعر الجماهير، ويهزّها من الأعماق للتفاعل معه وتستجيب له، إلاّ من

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي: ١٢: ٣٧٢.
(٣) يس: ٦٩.
(٤) الحاقة: ٤١.

طبع الله على قلبه، كما كانت خطبـهُ (صـلّى الله عليـه وآلـه وسـلّم) تنطوي علـى أسـلوبٍ وعظـي، وتعليمـي، وتشـريعي، وكـان يلقـي خطبه في مناسبات مختلفةٍ، وأماكن مختلفة، ثم فـي المسـجد بعـد هجرته إلى المدينة، ولا نسـتعجل الحـديث عـن خصـائص خطبـه الشريفة بـل لنـوردُ خطبتـهُ المعروفـة بخطبـة الـوداع ثـم نسـتعرض إجمالاً بعض ما يمكن استنباطه منها كقواعد وأصول للخطابة.

ولا يفوتني التنويه قبل نقـل الخطبـة إلـى تعـدُّد الروايـات التـي نقلت هذه الخطبـة، فـأختلف نـص الخطبـة لـذلك اختلافـاً كبيـرا، وأضــطرب الــنصُّ بــين التقــديم، والتــأخير، وحــذفٍ، وزيــادةٍ، وتحريف، وتصحيف. وأسباب الاضطراب كثيرة، فهناك ما ينيـف عن سبعين ألف مسلم شهدوا حُجَّة الـوداع، وسـمعوا خطبـة النبـي صلى الله عليه وآله فـي غـدير خُـم، سـمعوها، وتناقلوهـا مشـافهة، فتبدَّلت الألفاظ، وسقطت عبارات، وتناسى بعضهم عباراتٍ معيَّنة، بل أسقطوها لأسبابٍ سياسيةٍ، ودينيةٍ، فالجاحظ أوردها فـي البيـان والتبيين ـ وسنوردها عنـه ـ أسـقط كلمـة عترتـي مـن هـذا المقطع

لاعتبارات مذهبية، قال: «**فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركتُ فيكم ما إن أخذتم به، لن تضلوا بعده كتاب الله...**» ونقل ابن عبد ربَّه في العقد الفريد ج٢: ص٣٤٦، المقطع بالشكل التالي: «**فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به لن تضلُّوا، كتاب الله، وأهل بيتي**»[(١)].

نص الخطبة

«**الحمد لله، نحمدهُ، ونستعينهُ، ونستغفرهُ، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحدهُ لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُهُ ورسوله.**

أوصيكم؛ عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتحُ بالذي هو خير.

(١) انظر: الأدب السياسي الملتزم: الدكتور / صادق أئينة وتد، والدكتور / حسن عباس نصر الله: ٢٦.

أما بعدُ:

أيُّها الناس أسمعوا مني أبيِّن لكم، فإني لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عاميَ هذا، وفي موقفي هذا.

أيُّها الناس: إن أموالكم ودماءَكم حرامٌ عليكم، إلى أن تلقوا ربَّكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا هل بلَّغت؟ اللَّهم اشهد!

فمن كان عنده أمانة، فليؤدها إلى الذي أتمنه عليها. وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أبدأ به، هو ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب، وإنَّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أوَّل دمٍ نبدأ به، دمُ عامر بن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب.

وأنَّ مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانةِ والسقاية، والعمدُ قودٌ، وشبه العمدِ ما قتل بالعصي والحجر، وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناس، إنَّ الشيطان قد يـئس أن يُعبـدَ فـي أرضـكم هذه، لكنَّهُ رضي أن يُطاع فيما سواى ذلك مما تحقرون مـن أعمالكم.

أيُّها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّـذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلقَ اللهَ السمواتِ والأرض و﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَـرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثٌ متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجـة، ومحرَّم، ورجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلَّغـت؟ اللهم اشهد!

أيُّها الناس: إنَّ لنسائكم عليكم حقاً، ولكم علـيهنَّ حـق، لكم عليهنَّ ألا يوطئنَ فرشـكم غيـركم، ولا يـدخِلنَ أحـداً تكرهونهُ بيوتكم إلا بأذنكم ﴿ولا يأتينَ بفاحشةٍ مبَّينةٍ﴾ فـإن

فعلــن، فــإن الله قــد أذن أن تعضــلوهُنَّ، وتهجــروهُنَّ فــي المضاجع، وتضربوهُنَّ ضرباً غير مبرح، فإن انتهــينَ فعلــيكم رزقهنَّ، وكسوتهنَّ بالمعروف، إنما النساءُ عندكم عــوان، لا يملكن لأنفسهنَّ شــيئاً، أخــذتموهنَّ بأمانــة الله، واســتحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النســاء، واستوصــوا بهــنَّ خيراً، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!

أيُّها الناس: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ولا يحلُّ لأمرئً مسلم مالُ أخيه، إلاَّ عن طيب نفسه، إلا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!

فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضــكم رقــاب بعــض، فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا بعده، كتاب الله.

أيُّها الناس: إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ إلهكــم واحــد، وكلكــم لآدم وآدمُ من تراب، أكرمكم عنــد الله أتقــاكم إنَّ الله علــيمٌ خبير، وليس لعربي على أعجميٍ فضل إلاّ بالتقوى، ألا هــل بلّغت؟ اللهم اشهد!

قالوا: نعم. قال: فليبلِّغ الشاهدُ الغائب.

أيُّها الناس: إن الله قسَّم لكل وارثٍ نصَيبهُ من الميراث فلا تجوزُ لوارثٍ وصيَّة، ولا تجوز الوصية في أكثر من الثلث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن أدُّعي لغير أبيه، أو تولَّى غير مواليه، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرفٌ ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

بعض القواعد المستنبطة من هذه الخطبة الشريفة

في هذه الخطبة المباركة مجموعة من الخصائص، يمكن أن تؤخذ بالاعتبار لتكون كقواعد، وأصول لفن الخطابة يتَّبعها الخطباء في أدائهم، وهي بإيجازٍ كالتالي:

١ـ الابتداء بمقدمة والانتهاء بخاتمة

ظاهرة الابتداء بمقدمةٍ في الخطابة لم تكن معروفةً قبله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في الخطابة الجاهلية، فقلَّما يعمد الخطيب

(١) البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ: ٢: ٥٤.

الجاهلي إلى مقدمةٍ لخطبته، بل كان يباشر موضوعَهُ مباشرة، لذا يعدُّ صلى الله عليه وآله أوَّل من سنَّ المقدمات والنهايات الخطابية.

فالخطيب الجاهلي كان يبدأ بالقول: أما بعدُ، ثم يشرع في خطبته، بينما نجدهُ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يبدأ بمقدمةٍ تتضمَّن تحميداً لله عز وجل، واستغفاراً، واستعاذة... وهكذا كان الأمر عند الختام، فقد ختم صلى الله عليه وآله بعبارة «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**».

ولقد أصبحت المقدمة الخطابية سنَّة جارية بعده على ألسنة الخطباء إلى عصرنا الحالي، إلا ما شذَّ وندر، خصوصاً في الخطابة الدينية[١]، إلا إن الخاتمة في الخطابة الحسينية وهي نوع من الخطابة الدينية تحوَّلت إلى أدعيةٍ وابتهالات.

وتكمن أهمية الابتداء بالمقدمة في الخطبة، التي يمكن أن نصطلحَ عليها بمقدمة التهيئة أو الاستهلال، والتي تهدف أساسا

(١) كخطب الجمعة والعيدين وسائر المحاضرات الدينية.

إلى «جلب انتباه السامع، وشدِّه إلى المتكلِّم مثل بدايات السور القرآنية المباركة بالأحرف المتقطعة، وهي لا ترتبط بمعنى العمل الفني، ولا بمحتواه، وإنما لها وظيفةٌ إعلامية خاصَّة مؤقتة تزول مع بدأ العمل»(١).

وهي تؤدي ـ الابتداء بالتحميد أو البسملة أو الصلاة على النبي وآله عليه وعليهم السلام ـ في الخطابة الدينية وظيفة عبادية، إضافة إلى وظيفتها الأولى (تهيئة المستمعين للخطاب)، وقد حرص النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على الوظيفة العبادية للمقدمة في الخطاب بعامة، ورسَّخَهُ في نفوس المسلمين فقد أثر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كل أمرٍ ذي بال لم يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أقطع»(٢)، وقوله الآخر: **«كلُّ أمرٍ لا يبتدأ فيه بحمد الله،**

(١) الاستهلال، فن البدايات: ياسين النصير: ١٨.
(٢) ميزان الحكمة: محمد الريشهري: ١: ٦٩٢.

فهو أقطع»[١]، ويعمد الخطباء الحسينيون في عصرنا هذا، أو أحد الحضور إلى (الصلاة على محمدٍ وآل محمد) قبل ابتداء الخطيب بمقدمته الاستهلالية، تنبيهاً للسامع، وإيذانا بابتداء الخطبة، ولا يُكتفى عادةً بذلك بل يبدأ الخطيب بالبسملة، والصلاة على النبي مرَّة أخرى، وعلى آل بيته الكرام (عليهم السلام)، وتوجيه سلام خاص لسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، ويذكرون عبارات تثير الحزن في السامع، أو ما يقوِّي عقيدته بآل البيت (عليهم السلام)، وبدينه أو غير ذلك.

وثمة نوع آخر من المقدمات الخطابية يمكن أن نصطلح عليه (بمقدمة الفعل): وهي تلك البداية التي تؤسس للعمل، وهي بمنزلة النواة في النص تتحوَّل خلال العملية الإبداعية إلى كيان كامل[٢] ومنطلق للعمل وهو ما يعبَّر عنه بلاغياً بحسن الابتداء، أو براعة المطلع[٣]، قال ابن الأثير: «**ويكفيك من هذا الباب**

---

(١) م: ن: ٢: ٩١٦.

(٢) الاستهلال، فن البدايات (مصدر سابق): ١١.

(٣) جواهر البلاغة: أحمد الهاشمي: ٢٦٢.

الابتداءآت الواردة في القرآن الكريم كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور[١]**، وكذلك الابتداءآت بالنداء، كقوله تعالى في مفتتح سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ...﴾ وأوّل سورة الحج...»**[٢]، بل وابتداء السور بالبسملة يعدُّ من هذا النوع خصوصاً عند آل البيت (عليهم السلام)، وأتباعهم الذين يعتقدون إن البسملة آية من كل سورة، ولها ارتباط بالمعنى العام للسورة[٣]، وقد ضمَّن (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مقدمته إشارة إلى ما يريد تناوله من حديث أثناء خطبته، وذلك في قوله صلى الله عليه وآله: «**من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**» باعتبار أن ما سيقدمه من وصايا وتشريعات تحمل بين طياتها صور الهداية، وإن ما يخالفها عين الضلال، فالترابط بين المقدمة وصلب الموضوع يتم بمثل هذه الإشارات، والتي يعبر عنها بمقدمة الفعل.

وما تهم الإشارة إليه هنا، وهو إن هذا النوع من المقدمة يجب

---

(١) كسورة الفاتحة، والأنعام، والكهف، وغيرها من السور القرآنية.
(٢) انظر: المثل السائر: علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري: ٢: ٢١٠.
(٣) انظر: الميزان في تفسير القرآن (مصدر سابق): ١: ١١.

أن يتوفرَّ فيها «**الرقةُ، والسهولة في ألفاظها، ووضوح معانيها، واستقلالها عمَّا بعدها، ومناسبتها للمقام بحيث يجذب السامع إلى الأصغاء بكليته، لأنه أول ما يقرعُ السمع، وبه يُعرفُ ما عنده**»[1]، ويمكن تلخيص هذه العناصر بما يلي:

١ـ التلميح بأيسر القول لمضمون النص ولو بكلمةٍ واحدة.

٢ـ أن ترتبط هذه المقدمة مع بقية العناصر في العمل الأدبي برابطٍ عضوي، وما مرَّ من كلام عن جواهر البلاغة من استقلاله عمَّا بعده متأتٍ من الخلط بين نوعي المقدمات، إلا أن ذلك لا يعني أن لا تؤدي مقدمة الفعل وظيفة التنبيه والتهيئة، بالإضافة إلى توطئتها وتمهيدها للنص.

٣ــ أن يبيِّن فيها الخطيب الغاية وأهمية الموضوع قدر المستطاع، قال أرسطو: «**إن الوظيفة الخاصَّة الجوهرية**

(١) انظر: جواهر البلاغة (مصدر سابق): ٢٦٢.

٣٤) الخطابة: أرسطو، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي: ٢٣٨.

للاستهلال: هي أن نبيَّن الغاية، أو الغرض من الخطبة»[1]، كما صنعَ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في خطبته الموردة أعلاه «**أيُّها الناس: اسمعوا مني أبيِّن لكم...**»، وقال في موضع آخر: «**قد يتخذ الاستهلال صورة النصيحة، أو عبارات تتعلَّق بالسامع، وهذا يقع إذا كانت الخطبة تتعلَّق بموضوع يصطدم بالرأي العام**»[2]، وصنع مثل ذلك إمامنا الصادق (عليه السلام) في أحد خطبه، يقول: «**اسمعوا مني كلاماً هو خيرٌ لكم من الدُهُم الموفقة**»[3].

والخلاصة: إن المقدمة سواء أكانت مقدمة تهيئة، أو مقدمة فعل لا غنى عنها في الخطابة، وهذا أول ما يمكن اكتشافه من خطبته عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد غدت المقدمة والخاتمة من بعده صلى الله عليه وآله من القوانين الثابتة في الخطابة.

(١) م: ن: ٢٣٧.

(٢) م: ن: ٢٣٧.

(٣) أشعة من بلاغة الإمام الصادق، الشيخ عبد الرسول الواعظي: ٦٢. الدهم الموفقة: الخيول السوداء التي في أعلى أذنيها بياض.

٢ـ قِصرَ الخطبة

من الواضح إن التطويل يؤدي بالسامع إلى الملل «**لأن للكــلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فَضُلَ عن الاحتمــال دعــا إلى الاستثقال والمــلال، فــذاك الفاضــل هــو الهــذر، وهــو الخطل**»[١].

روى الجاحظ عن أبي الحسن المدائني، قـال: «**تكلَّم عمَّار بن ياسر رضي الله عنه يوماً فأوجز، فقيل له لــو زدتنــا؟ فقــال: أمرنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بإطالــة الصــلاة، وقصر الخطب**»[٢].

إن تقصير الخطبة يدلُّ على وعـي خطيـب، ومراعاتـه لمقتضـى الحـال فخيـر الكـلام مـا قـلَّ ودل. «**إن الســامع متعلِّــق بشــفتي الخطيب محمولٌ معه في كُلِّ ناحية، ولا قِبَلَ له بــالوقوف أو الإعراض دون أن تنفصم عُرى الألفةِ بينهمــا، فيــذهب مــن**

(١) البيان والتبيين (مصدر سابق): ١: ٧٢.

(٢) م: ن: ١: ٢٠٤.

الخطاب رونقه، وتفوت السامع فائدته، وبقدر ما يقتصد الخطيب على السامع في ألفاظه وجمله فإنه يوفرُ من انتباهه لإدراك معانيه، والتأثر بها»[1].

«أما الخطباء الذين تستحسن منهم الإطالة، فالذين لهم مكانة الرضا والقبول في نفوس المستمعين، كما تستحسن إطالة المقتدرين الذين تؤمن زلاتهم، أما منْ دونهم فالإيجاز أجدر بهم، ونصحوا الخطيب بمراقبة أحوال المستمعين، والاستجابة لما يقرؤهُ في عيونهم من استحسان، أو استثقال»[2].

روي عن أبن مسعود رضي الله عنه نصيحةٌ للخطباء، قال فيها: **«حدِّث الناسَ ما حدجوكَ بأبصارهم، وأذنوا لك بإسماعهم، ولحظوكَ بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فامسك»**[3]، وكان

(١) الخطابة: الدكتور / نقولا فياض: ٤٢.
(٢) بلاغة الخطاب الإقناعي (مصدر سابق): ٢٩.
(٣) البيان والتبيين (مصدر سابق): ١: ٧٣.

العرب يعدُّون التطويل في الخطب عياً، خطب ربيعة الرأي[١] يوماً فأطال، فلما نزل سأل إعرابياً، ما تعدُّونَ العيَّ فيكم؟ فقال الإعرابي: ما كنت فيه اليوم![٢]، وقد لاحظت قصِر خطبته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مع إنه أفصح من نطق بالضاد، ولعلَّ هذه الخطبة هي من أطول خطبهِ فما بالك بالأخريات.

وبكلمةٍ أخيرة إن ما عليه خطباء اليوم من التطويل ـ ساعةً أو أكثر ـ أمرٌ لا مبررَ له، بل إنه يفضُّ السامعين وينفرهم من الخطاب الديني، فيعود التطويل بالضرر على عملية التبليغ والخطابة الحسينية برمتها!!

٣ـ الوضوح

ونرى في خطبته هذه وسائر خطبه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وضوحاً تاماً، وسلامة في ألفاظهِ من التعقيد والاغراب والاستكراه، ولا يستعين بخلابةٍ ولا تزويق، ومع ذلك فإن الألفاظ جزلة لها بهاءٌ

(١) وهو ربيعة بن فروخ التيمي، المدني، أحد فقهاء المدينة وعلماء الحديث، سمي بربيعة الرأي لمعرفته بأصحاب الرأي والقياس في الفقه.
(٢) البيان والتبيين (مصدر سابق): ١: ٧٣.

ورونق[١]، ويعدُّ الوضوح من أهم خصائص الأسلوب الخطابي، والملاحظة الأخرى: هي أنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) تخلَّى عن العبارة الجاهلية المعتمدةِ على اللفظ الكثير الجلبة، وأعتمد التعبير المباشر عن الفكرة بتراكيب واضحةٍ، وبسيطة، ومتناغمة بسلاسةٍ بعيداً عن السجع المتكلَّف، وبرقةٍ تداعُب عقل السامع وتخترقُ قلبه، غير مبتعدٍ في الوقت ذاته عن الأساليب البيانية.

٤ـ بيان الهدف

أشار (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مستهلِّ الخطبة إلى الهدف، أو الغاية التي خاطب من أجلها الجمهور «**أيُّها الناس: اسمعوا مني أبيِّن لكم...**» إن بيان الهدف أو الغاية من صياغة الخطاب تُلفت انتباه السامع، وتعمِّقُ اهتمامه بالموضوع، خصوصاً إذا كان مما يدخل في حيِّز اهتمامه، وقد مرَّت بعض تفاصيل ذلك في الحديث عن المقدمة الخطابية فراجع.

٥ـ إشراكه للجمهور في الحديث

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي: الدكتور / شوقي ضيف: ٥٧.

وهو أحد الأساليب الناجحة في زيادة التفاعل والتأثير بين الخطيب، وجمهوره فمثل هذه العبارات الندائية «**أيُّها الناس**» التي تتخلل الخطبة، أو توجيهه للسؤال «**ألا هل بلغت**» تجعل السامع متيقظا، منفتح الذهن، مقبلاً على الخطيب وكأنه يحدِّثهُ شخصياً، وكان هذا ديدن الخطباء حتى في الخطابة الرومانية، وقد أعجب أرسطو بجورجياس حيث ابتدأ خطبته الأولمبية بالقول:

«**أيُّها الهلينيون: هؤلاء رجالٌ جديرون بإعجاب الجميع...**»[1]، ويمكن أن تستبدل عبارة (أيُّها الناس) في خطابتنا المعاصرة بالقول: (أيُّها الأخوة، أو أيُّها المؤمنون، أو يا أحبة الحسين...).

٦ـ مراعاته صلى الله عليه وآله للجوانب الأخلاقية

وهذه سمة من سمات الهامَّة التي تجعل الخطيب مقبولاً لدى السامع، ومحترم الرأي، فهو لا يميِّز نفسه الشريفة على السامعين، بل يدخلها في دائرة الخطاب والتوجيه تأدباً مع السامع «**نعوذ بالله**

---

(١) الخطابة: أرسطو (مصدر سابق): ٢٣٦.

من شرور أنفسنا، ومن سيئآت أعمالنا» ولم يقل مثلاً: استعيذوا بالله من شرور أنفسكم.

كما يقوم بتطبيق تلك التشريعات، والتوجيهات على نفسه، وأسرته ويبدأ هو بتطبيقها قبل الآخرين، فهو يفعل ما يقول «**وإن ربا الجاهلية موضوع، وأولُ رباً أبدأ به ربا عمّي العباس، وإن دماء الجاهلية...**».

٧ـ التوسُّل بأسلوب الالتفات

الالتفات: هو نقل الكلام من حالة التكلُّم، أو الخطاب، أو الغيبةِ إلى حالةٍ أخرى من تلك الحالات؛ لمقتضيات وأغراض بلاغيةٍ معَّينةٍ، وفائدة هذا اللون من التعبير هي تلوين الخطاب حتى لا يملَّ السامع من إلتزام حالةٍ واحدةٍ من الكلام[1].

وللالتفات صور متعددة: كالعدول من الخطاب إلى التكلُّم في قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) «**أسمعوا مني أبيِّن لكم**»، وقوله: «**فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض**

(١) جواهر البلاغة (مصدر سابق): ١٥٢.

فإني تركتُ فيكم...»، أو العدول من الغيبةِ إلى الخطاب كقوله: «**فإن انتهين فعليكم رزقهنّ**»، إلى غير ذلك من الصور.

٨ـ التفصيل بعد الإجمال

وهو أحد الأساليب الرائعة التي تسهم في ترسيخ مضمون الفكرةِ في ذهن السامع من خلال إيرادها مرتين، مرَّةً على سبيل الإجمال، وأخرى على سبيل الشرح والتفصيل، وقد جرى (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في أغلب مقاطع الخطبة على هذه الطريقة، فلاحظ قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «**إن أموالكم ودماءَكم حرامٌ عليكم**»، ثم فصَّل بقوله: «**فمن كان عنده أمانه فليؤدها... وإن ربا الجاهلية موضوع**» فالأمانة والربا تفصيل للأموال، وقوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «**وإن دماء الجاهلية...**» تفصيل لقوله «**ودماءَكم**».

ولاحظ قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «**إن لنسائكم عليكم حق، ولكم عليهنَّ حق**» ثم فصَّل هذا الإجمال، بالقول: «**ولكم ألا يوطئن فرشكم غيركم...**» فراجع وتأمل.

٩ ـ إتباع التسلسل المنطقي بين أجزاء الخطبة

اتبع صلى الله عليه وآله التسلسل المنطقي في تنظيمه لأجزاء الخطبة، فقد بدأ صلى الله عليه وآله بالمقدمة، ثم دخل في العرض، ثم جاء بالخاتمة، وضمن العرض استدلالا بالآيات القرآنية في بعض الأحيان، وهو أمر سائغ.

وهذا هو التسلسل المنطقي الموروث في أجزاء الخطبة من لدن أرسطو إلى يومنا هذا، فقد قسَّم أرسطو الخطبة إلى أربعة أجزاء: المقدمة والعرض والتدليل ثم الخاتمة، ولا مانع من تداخل الاستدلال مع العرض كما صنع (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

ما يهم التلميح إليه هو: إمكانية تجاوز المقدمة والاستغناء عنها إن لم تكن ثمة حاجة للابتداء بها، كما يمكن الخطيب أن يقطع خطابة مع انتهاء العرض، وإن كان الانتهاء بالخاتمة أفضل، إلا أن ما لا يمكن تجاوزه هو العرض لأنه صلب الموضوع وجوهر ما يريد إبلاغه الخطيب للجمهور.

ويشترط في العرض أمور ثلاثة:

الأول: الوضوح، وقد تحدثنا عنه.

الثاني: التنظيم: بمعنى أن يعرض الخطيب موضوعه متسلسلا يسلم كل جزء إلى ما بعده، وبذلك تمهد الأجزاء كلها للنتيجة، وللتنظيم أهمية كبيرة «**وذلك لأن المفاهيم والمعلومات مهما كانت حسنة وذات قيمة، إلا أنها تفقد قيمتها الفكرية والمعرفية إن لم يعرضها المتحدث في مكانها المناسب، وفي وقتها المناسب، وتبقى تلك المفاهيم والأفكار كقبضة لآلئ لا تتحول إلى قلادة جميلة، ما لم يتم تنضيدها في سلك واحد**»(١).

وقد لاحظنا أنه صلى الله عليه وآله كان استخدم أُسلوب التفصيل بعد الإجمال وقد أشرنا إليه فيما سبق، كما قدَّم في الحديث الوصية بالتقوى لأن عليها مدار التدين والإسلام، ثم نقل الحديث إلى الأموال والدماء، نظرا لاحتياط الشريعة فيهما، وترك الوصية بالنساء إلى آخر الخطبة لا لشيء سوى طول الحديث في

(١) انظر: نهج الخطابة: محمد علي فروغي، ترجمة: د/ صادق إسماعيل: ٦٥.

هذه الفقرة وترتب عدة وصايا في هذا المجال، ثم عاد صلوات الله عليه ليربط آخر موضوعه بأوله حيث أعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وبما أن الموت خاتمة المطاف في سعي الإنسان في هذه الدنيا، وأن الوصية في المال والميراث من الأمور التي ترتبط بخاتمة حياة الإنسان، فقد جعل الحديث عن الإرث والوصية في المال في آخر الخطبة، واستطرد صلى الله عليه وآله إلى قضية النسب لأنها تثار غالبا عند التنازع على الميراث، فجاءت خطبته صلوات الله عليه منظمة منسقة شكلا ومضمونا.

الثالث: وحدة الموضوع: بمعنى أن تكون هناك فكرة مركزية يدور حولها الحديث، وتتشعب منها الأفكار الفرعية، وتتحقق وحدة الموضوع عندما تكون تلك الأفكار الفرعية كمسببات لقضية واحدة، أو نتائج لقضية ما، أو مصاديق لموضوع معين، كما هو الحال في خطبته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حيث ترجع كل الأفكار الفرعية والمقاطع إلى قضية واحدة، وهي الدعوة للالتزام

بتشريعات الإسلام.

١٠ـ تنوع أُسلوب العرض

من الخصائص الفريدة في هذه الخطبة الشريفة تنويعه صلى الله عليه وآله في أُسلوب العرض، فلم يعرض الأفكار والقضايا بطريقة واحدة، بل كان يعمد صلى الله عليه وآله إلى عرض الفكرة مرة ثم يستشهد عليها بشاهد قرآني، كما هو الحال في هذا المقطع:

«أيُّها الناس: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرض و﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثٌ متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرَّم، ورجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد!».

فبدأ صلى الله عليه وآله بالآية الشريفة، ثم انطلق في عرض ما يريد عرضه من فكرة حولها، في حين نراه في مقاطع أخرى يعرض الفكرة أولا ثم يأتي على ذلك بشاهد قرآني، كما في قوله صلى الله عليه وآله:

«أيُّها الناس: إنَّ لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهنَّ حق، لكم عليهنَّ ألا يوطئنَ فرشكم غيركم، ولا يدخِلنَ أحداً تكرهونهُ بيوتكم إلا بأذنكم ﴿ولا يأتينَ بفاحشةٍ مبَّينةٍ﴾...».

والخلاصة

فهذه جملة من الخصائص التي استفدناها من خطبته (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولا يعني ذلك إن ما ذكر هو كلُّ خصائصها، فهناك خصائص أخرى سنعرض لها في الخطب التالية، والواقع إننا في عصر نحتاج فيه أكثر من أيَّ وقت مضى لإتّباع مثل هذه الأساليب في خطابتنا لانتشالها مما هي فيه من الضعف والتدهور.

٢ـ خطبةٌ للإمام أمير المؤمنين عليه السلام

قال (عليه السلام):

«أيُّها الناس: شقُّوا أمواجَ الفتنِ بسفن النجاة، وعرِّجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلحَ منْ نهضَ بجناح، أو أستسلمَ فأراح، ماءٌ آجن، ولقمةٌ يغصُّ بها آكلها، ومجتني الثمرة لغيرِ وقتِ إيناعها، كالزارع بغير أرضه.

فإن أقل: يقولوا حرص على المُلك!

وإن أسكت: يقولوا جزع من المَوت!

هيهات بعد اللُّتيا والتي، والله لابنُ أبن طالب آنسُ بالموت من الطفل بثدي أمِّه، بل أندمجتُ على مكنونِ علمٍ لو بحتُ به لاضطربتم، اضطراب الأرشية في الطوِّيِّ

البعيدة»[١].

مناسبة إلقاء الخطبة

أدلى (عليه السلام) بهذا الكلام لمَّا قبضَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وجاءَه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب، وطلبا منه أن يبايعاه بالخلافة، وكان قد بُويع لأبي بكر تواً، فلم يستجب (عليه السلام) لهما، ثم قال: «**أيُّها الناس...**».

القواعد المستنبطة من الخطبة

١ـ وضوح الفكرة

إن الملاحظة الأولى التي يمكن أن تسجَّل للخطبة، هي وضوح الفكرة.

ونعني بالفكرة: ذلك الهدف الذي يستهدفُهُ المتكلِّم من وراء صياغته للخطاب، فكل متكلِّمٍ لابدَّ أن يهدف لغرضٍ معيَّن عند صياغة الخطاب، وإلاّ كان الكلام لغواً، فيجب أن تؤدى الفكرة واضحة، ممتازة عمَّا سواها، ظاهرة الخواص والمعالم. ولكن ذلك

(١) شرح نهج البلاغة: هبة الله عبد الحميد بن أبي الحديد: ١ 213.

لا يعني أن يتوقف همُّه على إيصالها جافة ثقيلة، بل يحسن أن يكسب الفكرة روعة، وحياة بما يبث فيها من العواطف والأخيلة[١]، كما ستلاحظ في الخطبة الشريفة.

فلقد أراد (عليه السلام) بموعظته التي إبتدأ بها الخطبة، أن يحذر الناس من الوقوع في الفتن، أو اختلاقها وتفريق شمل الجماعة بها، من أجل مفاخرة بمنصب أو مال، ثم ألمح إلى أن ما يدعونه إليه من وراء رفض بيعة أبي بكر، وإقامة بيعة أخرى بإزائها، يحتاج إلى نصرة ومؤازرة، فإن لم تكن، فالاستسلام للأمر الواقع «**أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح**».

وقد شبَّه إقدامه على ما يدعونه إليه من منازعة الخليفة الأول، والخلافة التي تأتي بهذا المنهج، بالماء الآجن أي المتغير الفاسد، أو اللقمة التي يغص بها صاحبها. وألمح (عليه السلام) بأن الوقت غير مناسب لاسترجاع الحقِّ لأهله، فشبَّه ذلك بإجتناء الثمرة لغير وقتها. ثم انتقل بالحديث من العمومات التي ظللها بالاستعارات،

---

(١) انظر: الأسلوب: الدكتور / أحمد الشايب: ١٨٦.

والتشبيهات إلى الخصوصيات، وبلغة تقريرية واضحة «**إن أقل: يقولوا حرص على المُلك....**»، ثم عاد (عليه السلام) ليظلل كلامه بأستار الاستعارة، والتشبيه، والكناية، تعميما لدلالة الكلام، وتحاشيا من التصريح عمَّا تجيش به نفسه الشريفة. وباختصار: فالقاعدة المستفادة هنا، هي أن تكون الفكرة في لغة الخطاب واضحة، ولا يشترط أن تؤدى بلغة تقريرية مباشرة، خصوصا إذا كان الموقف يتطلَّب التعتيم على الفكرة، بالتعميم، أو التعتيم بأحد الوسائل البيانية الأخرى.

٢ـ ملائمة الخطبة للموقف

ويسجل للخطبة الشريفة ملائمتها للموقف، فإن الرجلين ـ العباس وأبو سفيان ـ دعياه ليبسط يده ليبايعاه، وما ذلك إلا لرؤيتهما أولوية بني هاشم لخلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من بطون قريش الأخرى، ولكن لا بالشكل الذي نفهمه نحن الآن من النص عليه (عليه السلام) بالخلافة والولاية، بل فهم الإمام (عليه السلام) من دعوة أبي سفيان الذي طالما كاد الإسلام

وأهله، إنه يريد بهذه الدعوة إشعال نيران الفتنة، وربما (لا ندري) استشف (عليه السلام) من لحن قول العباس: «**تربت أيديكم آخر الدهر، أما أني أمرتكم فعصيتموني**»[(١)]، إنه يريد المفاخرة، فجمع الرد على الرجلين بجملتين، والخلاصة: من الأمور الهامة في الخطابة أن يلائم محتوى الخطبة الموقف، ولا يكون بائنا عنه.

٣ـ إثارة المشاعر

إثارة المشاعر من أهم خصائص الأسلوب الخطابي، وأكثرها تأثيرا في تحريك الجمهور، ولقد امتازت جلُّ خطبه (عليه السلام) بهذا العنصر الذي تستدعيه الصور الفنية الرائعة التي يطرز بها كلامه (عليه السلام)، فتجد إلى جانب وضوح الفكرة روعة الصورة من خلال «**العبارات التي تثير في النفوس أخيلة وذكريات، وتبعث صورا وأفكار ملائمة للموضوع**»[(٢)]، وقد قرأنا في هذه الخطبة حشدا وافرا من الاستعارات التخيلية،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١: ١٨٦.

(٢) فن الخطابة: أحمد الحوفي: ١٨٣.

والتشبيهات التي تثير الخيال في نفوس السامعين، ومن ثمَّ تحريك عواطفهم، وتأجيج مشاعرهم.

إن المهم في الخطابة أكثر من أي شيء آخر، هو تحقيق عنصر الإثارة العاطفية، ولقد بات «**من الحقائق المعروفة في حقل الاجتماع، إن الجمع يكتسب سمة جماعية يفقد من خلالها كل فرد سمته الشخصية ليندمج في المجموع، وعملية الاندماج المذكورة تقوم أساسا على عاطفة شديدة**»[1]، وهذا الأساس الإنفعالي لا يقوم على إنتقاء المواقف وطرحها فقط، بل على الأدوات الفنية أيضا، مثل الإيقاع، والصورة، والتشبيه، والكناية، وعلى دورها ـ انتقاء المواقف والأدوات الفنية ـ في تصعيد الموقف الانفعالي.

وقد تضمنت الخطبة المذكورة أحسن الاستعارات، وأدقَّ التشبيهات، كقوله (عليه السلام): «**شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة**» «**وذلك لأن الفتن قد تتضاعف، وتترادف، فحسُن**

(١) الإسلام والفن: الدكتور / محمود البستاني: ١٤٥.

تشبيهها بـأمواج البحـر المضـطربة... ولمـا كانـت السـفن الحقيقية تنجي من أمـواج البحـر، حسُـن أن يسـتعار لفـظ السفن، لما ينجي من الفتن، وكذلك قولـه (عليـه السـلام) ضعوا تيجان المفاخرة؛ لأن التاج لما كـان يعظـم بـه قـدر الإنسان، استعاره لما يتعظم به الإنسان من الافتخـار، وذكـر القـديم، وكـذلك اسـتعارة النهـوض للجنـاح»[١]، للأعـوان والمناصرين، وكأنه يطير بهـم للنصـر والظفـر **«ووجـه المشـابهة ظاهر، فإن الجناح لمـا كـان محـل القـدرة علـى الطيـران والتصرف، وكانت الأعوان بهم القوة على النهوض للحـرب، والطيران في ميادينها، لا جرم حصلت المشابهة فاستعير لفظ الجناح»**[٢] لهم.

ومن التشبيهات الرائعة في هذه الخطبة، تشـبيهه الخلافـة بالمـاء الآجـن، واللقمـة التـي يغـص بهـا صـاحبها، علـى سـبيل الإسـتعارة

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١: ١٨٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ابن ميثم البحراني: ١: ٢٧٧.

المكنية، تنبيها منه (عليه السلام) «**إلى أن المطالب الدنيوية، وإن عظمت فهي مشوبة بالكدر، والتغيير والنقص، وأشار إلى أمر الخلافة في ذلك الوقت، وتشبيهها بالماء واللقمة ظاهر، إذ عليهما مدار الحياة، وأمر الخلافة من أعظم أسباب الدنيا فتشابها، فأستعار لفظهما لما يطلب منها، وكنى به عنه.**

ولما كان أجون الماء، والغصص باللقمة ينقضهما، ويوجب نفار النفس عن قبولهما، وكانت المنافسة في أمر الخلافة، والتجاذب، والمنافرة بين المسلمين فيها، وكونها معرض الزوال، مما يوجب تنفير النفس عنها، وعدم الالتذاذ بها»[1].

كما وشبَّه (عليه السلام) اضطراب آرائهم على تقدير البوح بما اندمج عليه من علم، باضطراب الحبال في الآبار بعيدة القعر، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، فإن البئر كلما كانت أعمق، كان

(١) م: ن: ٢٧٨.

اضطراب الحبل أشدُّ لطوله[١].

كما توسَّل (عليه السلام) لإتمام عملية الإثارة بالإيقاع، وسنعرض له لاحقا، وقد تحقق ذلك بفضل انسجام الحروف، وحلاوة جرسها، وائتلاف كلماتها، وتلاؤم فقراتها، معضدا ذلك كله بالازدواج، والسجع البريء من التكلف.

٤ـ تغاير الأُسلوب

ومما يحقق للخطيب التأثير في الجمهور، ولفت انتباههم إليه باستمرار، تغاير أُسلوبه في الإلقاء، فلا يبقى على وتيرة واحدة، بل ينتقل في أُسلوب صياغة العبارة، من الإنشاء تارة، إلى الإخبار أخرى، ومن الاستفهام إلى التعجب.... الخ، فيجدد ذلك التغاير نشاط السامعين، وقد لاحظت أنه (عليه السلام) ابتدأ بجمل إنشائية، تضمنت مجموعة من الأوامر، (شقوا، ضعوا، عرجوا...)، ثم عدل عنها إلى الإخبار بجمل فعلية تارة (أفلح، استسلم....)، وأخرى بجمل اسمية، إلا أنه (عليه السلام) حذف منها المسند إليه

(١) انظر: م: ن، وانظر: من بلاغة الإمام علي (مصدر سابق): ١٢٢.

تعويلا على شهادة العقل بواسطة القرائن الحالية، فالتقدير: هذا ماء آجن[١]، أو هي ـ الخلافة ـ ماء آجن، وهي لقمة..... الخ، ثم عاد إلى الإنشاء بجمل شرطية (فإن أقل، يقولوا...)، ثم مضى إلى القسم، وأتى بعده بالإضراب (بل اندمجت)، والحاصل: تلاحظ تغيُّرا وتلوُّنا في أُسلوب الخطاب.

ومن تغاير الأُسلوب أيضا، ما مرَّ الحديث عنه مفصلا في خطبة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، تحت عنوان ـ التوسل بأُسلوب الالتفات ـ الذي لم يفت الإمام (عليه السلام) استعماله هنا عند قوله: «**فإن أقل يقولوا حرص على الملك... بثدي أمِّه**» فهو التفات من التكلم إلى الغيبة، وكان مقتضى السياق أن يقول: فإني آنس بالموت من الطفل بثدي أمِّه، وكذا التفاته من الغيبة إلى التكلم في قوله: «**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم...**»، ومقتضى السياق

(١) في بعض نسخ النهج أثبتت كلمة (هذا). انظر: نهج البلاغة ط: مؤسسة أنصاريان: ٣٢.

أن يقول: لكنه أندمج على مكنون علم لو باح به لاضطربتم[١].

٥ـ صدق العاطفة

العاطفة: «**تنظيم وجداني ثابت نسبيا، ومركب من عدَّة استعدادات انفعالية تدور حول موضوع معيَّن، قد يكون شيئا، أو شخصا، أو جماعة، أو فكرة**»[٢]، فالإنسان الذي يحب وطنه ـ مثلا ـ يفرح حينما يراه مزدهرا، ويحزن عندما يراه خرابا، ويحنُّ إليه عندما يكون بعيدا عنه..... وهكذا، فترى صدور عدَّة انفعالات من مصدر واحد، وذاك المصدر هو عاطفة الحب.

ولا أظنني بحاجة إلى إقامة دليل، أو إيراد شواهد على العاطفة الفياضة التي كانت تموج بها نفس أمير المؤمنين (عليه السلام) تجاه الإسلام، وتعاليمه، وقيمه، ومبادئه، وتجاه المسلمين، وهمومهم، وآلامهم، وحرصه الشديد على وحدتهم، وسعادتهم، وغير ذلك من صور الانفعالات التي كانت تنبع من عاطفة الحب

(١) انظر: من بلاغة الإمام علي (مصدر سابق): ١٢٢.

(٢) أصول علم النفس: الدكتور: أحمد عزت راجح: ١٥٤.

للإسلام والمسلمين، فمن المؤكد أنه كان يفرح عندما يرى الإسلام وأهله بخير، ويحزن عندما يمسهما ضرٌّ، أو يرى الشياطين والأهواء تعبد من دون الله، وتضيق نفسه عندما يرى قوانين السماء تنتهك، ويفزع عندما يرى أحدا ممسكا بمعول ليهدم به بعض منجزات الإسلام.

ومن منطلق هذه العاطفة كان (عليه السلام) حريصا على صيانة المجتمع الإسلامي من التناحر، والاحتراب، والتمزق، أو غيرها من صور التشتت التي تؤدي إلى اضمحلال الإسلام، وضياع حضارته العظيمة، فحبة الشديد للناس جعله يحرم نفسه طيب العيش وملاذه، فاكتفى من طعامه بقرصيه، ومن ثيابه بطمريه مواساة لفقراء المسلمين، وضعفائهم، فلعلَّ بالحجاز، أو اليمامة من لا طمع له بالقرص، أو لا عهد له بالشبع! هذا هو منطق أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو الموقن حق اليقين «**إن قوَّة الحالات العاطفية تتضاءل عندما تزداد الثروة... وعندما يصبح الغذاء أكثر**

إتقانا ودسما»(١)، وهذا ما يفسر لنا بروز ظاهرة الزهد في حياته (عليه السلام)، والعزوف عن متاع الدنيا، وكل ما يمت إليها بصلة: من مال، أو جاه، أو منصب، أو مفاخرة، وقد ظهرت آثار تلك العاطفة في زهده الذي لم ير العالم مثله فيه مثيلا.

فالعاطفة: هي العنصر الفعال في كل عمل أدبي؛ لأنها تحيل صمت الفكرة إلى خصوبة، وهي لا تقتنع بالوقوف إلى حدود الواقع المشاهد، بل تحلِّق بالخيال ليبدع، فيبهر به النفوس، وتطرب له المشاعر، فالأديب حينما يمرُّ بتجربة من تجارب الحياة، أو يتأثر بموقف معيَّن، تنتابه مشاعر معيَّنة ربما لا تتأتى لغيره من الناس، فتؤثر فيه كما يتأثر الماء الساكن بحجر ألقي فيه فتهتزُّ جنباته.

وكلامه (عليه السلام) في دعوته للناس بالتعريج عن طريق المنافرة، ووضع تيجان المفاخرة، ينبع من إيمان عميق، وعقيدة راسخة فيما يقول للناس، ويدعوهم إليه، وهذا البحث في الواقع أقرب إلى أخلاقيات الخطيب، فيجب أن يتجنب في هذا الضوء

(١) الإنسان ذلك المجهول: الدكتور / ألكسس كاريل: ١٥١.

الخوض فيما لا يعتقد بصحته، ولا يقل ما لا يفعل.

٣ـ خطبة للإمام الحسين عليه السلام

خطب الإمام الحسين (عليه السلام) بجموع الناس في مكة، قبل خروجه إلى العراق، فقال: «**الحمد لله ما شاء الله، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله، وصلى الله على رسوله. خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني لأسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطُّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملآن مني أكرشا جوفا، وأجربة سغبا، لا محيص عن يوم خطَّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، وهي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرُّ بهم عينه، وينجز**

بهم وعده، ألا من كان باذلاً فينا مهجته، وموطِّنا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فإني راحلٌ مصبحا إن شاء الله»[(١)].

بين يدي الخطبة

«جاءت معظم خطب الإمام الحسين (عليه السلام) التي روتها كتب التاريخ والسيرة، كردَّة فعل على الأحداث التي أخنت عليه، فتطبعت خطبه بمقتضى تلك الأحداث»[(٢)]، من هنا تراه يطرح أفكاره بتعابير سهلة ميسَّرة، إلا أنه (عليه السلام) ينزع في بعض الأحيان ـ كما في بعض مقاطع هذه الخطبة ـ إلى مواقف نفسية وانفعالية أشدُّ حدَّة، مما يضفي ذلك جمالا وقوة على تعابيره، كما لم يكن (عليه السلام) في معظم أوقاته خصوصا في أيام تحركه فارغ البال، هادئ الخيال؛ لذا فالظن إن أغلب خطبه كانت ارتجالية، فالأفكار مدروسة بكل تأكيد، لكن التعبير عنها مرتجل، وهذا أرقى مستوى يمكن أن يصل إليه خطيب في

(١) عوالم العلوم ومعارف الأخبار: الشيخ عبد الله البحراني:١٧: ٢١٧.
(٢) فن الخطابة وتطوره عند العرب (مصدر سابق): ٢٢٥.

خطابته، وخطبه (عليه السلام) وإن كانت وليدة ساعتها، وردّة على الأحداث ـ كما مر ـ إلا أن الحماسة التي كانت تفور بها نفسه الشريفة، جعلته أكثر حيوية وحرارة في حديثه، والحماسة والنشاط من أهم صفات الخطيب الناجح، فهما يعطيان درجة عالية من التصديق، ويكون الخطاب مؤثرا في الجمهور.

ومن أهم العناصر الفنية في هذه الخطبة

إن خطبته (عليه السلام) تطالعنا بالنوعين من المقدمات التي تحدثنا عنها فيما سبق، فابتدأ (عليه السلام) بمقدمة التهيئة وضمَّنها تحميدا لله عز وجل، وجزءا من الحوقلة، والصلاة على النبي وآله، وقد تضمنت هذه المقدمة إضافة إلى وظيفتها الأولى أي تهيئة أذهان السامعين للخطاب، إشارة إلى ما يتعرض له (عليه السلام) من الأذى والاضطهاد من السلطة الغاشمة، وهذا ما يفهم من قوله (عليه السلام) «**ولا قوَّة إلا بالله**».

أما المقدمة الثانية: فكانت مقدمة الفعل أو مقدمة الموضوع، وقد أشار (عليه السلام) إلى موضوع خطبته فيها بقوله: «**خطَّ**

الموت على ولد آدم» في إشارة واضحة إلى ما تحدث عنه (عليه السلام) من تعرضه إلى القتل والتمثيل بجسده الشريف.

والحاصل: فإن الخطبة رغم قصرها جاءت بالنوعين من المقدمات والتي تحدثنا عنها سابقا في خطبة النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

والملاحظة الأخرى في الخطبة الشريفة: الإكثار من التشبيهات والكنايات التي تثير الخيال، ومن ثم المشاعر «**لأن ضرورة الخيال أعظم في الخطابة؛ لأنها تعنى بالتأثير، والمرء يتأثر بما يشخص أمامه ويراه، أكثر مما قد يدأب لتمثيله في ذهنه، لهذا درجت الخطابة ـ خصوصا في المجتمعات التي يكون أفرادها قليلي الحظ من التعلم ـ على تمثيل العواطف تمثيلا حسِّيا ماديا**»[1]، فقد شبَّه (عليه السلام) الموت بالقلادة التي توضع في عنق الفتاة، وفي ذلك التفاتة رائعة فالقلادة زينة، في إشارة إلى أن الموت خطوة تكاملية في مسيرة الإنسان

(١) م: ن: ١٠.

التكوينية. وشبَّه اشتياقه إلى سلفه الطاهر باشتياق يعقوب إلى يوسف (عليهم السلام)، ليرمز إلى شدَّة ذلك الشوق.

كما استعان بالكناية كما في قوله (عليه السلام): «**كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات...**» كناية عن كونه (عليه السلام) سيقتل، ويبقى متروكا في العراء، ويمثّل بجسده الشريف كما تفعل الضواري بفريستها.

٤ـ خطبة للإمام زين العابدين عليه السلام

ذكر السيد ابن طاووس عن بشر بن حذلم، في مناسبة إلقاء خطبته الآتية: إنه (عليه السلام) بعد نزوله على مقربة من المدينة، إثر رجوعه من رحلة السبي المؤلمة، دعا بشرا وأمره أن يدخل المدينة، وينعى الحسين (عليه السلام)، ويخبر الناس بوصول الإمام علي بن الحسين وعماته.

قال بشر ـ بعد أن دخل المدينة، ونعى الحسين (عليه السلام) بأبياته المشهورة على الألسن:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها...

فتركوني ـ أي الناس الذين تجمعوا حوله ـ مكاني وبادروا، فضربت فرسي حتى رجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا

الطرق والمواضع[1]، فنزلت عن فرسي، وتخطيت رقاب الناس حتى قربت من الفسطاط، وكان علي بن الحسين داخلا، فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي، فوضع له فجلس عليه[2]، وهو لا يتمالك من العبرة، فارتفعت الأصوات بالبكاء، وحنين الجواري والنساء...، فأومأ بيده أن اسكتوا، فسكنت فورتهم، فقال (عليه السلام):

«**الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، بارئ الخلائق أجمعين، الذي بعُد فارتفع في السماوات العلى، وقرُب فشهِدَ النجوى، نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفواجع، ومضاضة اللواذع، وجليل الرزء، وعظيم المصائب الفاظعة، الكاظة، الفادحة، الجائحة.**

(١) كناية عن شدة الزحام.

(٢) يمكن اعتبار هذا التجمع والخطبة فيهم، أول مجلس حسيني يمتاز بأغلب ما تختص به المجالس الحسينية من مقومات.

أيها القوم: إن الله تعالى وله الحمد، ابتلانا بمصائب جليلة، وثلمة في الإسلام عظيمة، قتل أبو عبد الله (عليه السلام) وعترته، وسبي نساؤه وصبيته، وداروا برأسه في البلدان، من فوق عامل السنان، وهذه الرزية التي ما بعدها رزية.

أيها الناس: فأيٌّ رجال منكم يسرُّون بعد قتله، أم أيٌّ عين منكم تحبس دمعها، وتضنٌّ عن انهمالها؟ فلقد بكت السبع الشداد لقتله، وبكت البحار بأمواجها، والسماوات بأركانها، والأرض بأرجائها، والأشجار بأغصانها، والحيتان في لجج البحار، والملائكة المقربون، وأهل السماوات أجمعون.

أيها الناس: أيٌّ قلب لا ينصدع لقتله، أو أيٌّ فؤاد لا يحنٌّ إليه، أم أيٌّ سمع يسمع بهذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يُصم؟

أيها الناس: أصبحنا مطرودين، مشرَّدين، مذمومين،

شاسعين عن الأمصار، كأننا أولاد ترك أو كابل، من غير جرم اجترمناه، ولا مكروه ارتكبناه، ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، إن هذا إلا اختلاق.

والله لو أن النبي صلى الله عليه وآله تقدَّم إليهم في قتالنا، كما تقدَّم إليهم في الوصاية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

مصيبة ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظها، وأفظعها، وأمرَّها، فعند الله نحتسب فيما أصابنا، وأبلغ بنا إنه عزيز ذو انتقام»[1].

مع نص الخطبة في مضامينها

على غير المعهود في تعاملنا مع الخطب السابقة، نريد أن نسلط الأضواء أولا على مضامين هذه الخطبة، وسنقوم بالخطوة ذاتها في الخطبة التالية أيضا؛ لارتباط موضوعيهما بفاجعة كربلاء، والنهضة الحسينية المقدَّسة، حيث تشكل خطب سبايا آل البيت (عليهم

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: السيد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس: ١١٨.

السـلام)، والتـي أُلقيـت فـي الكوفـة، والشـام، والمدينـة المنـورة، الأساس الشرعي لقيام المنبر الحسيني، وظاهرة ندبة الحسين (عليـه السـلام)، والتـذكير بمـا جـرى عليـه فـي كـربلاء، فالحاجـة إلـى توضيف مضامينها، وقواعدها في خطابتنا أشدُّ وآكد.

مضامين الخطبة الشريفة

١ ـ ركَّز (عليـه السـلام) طـويلا علـى حمـد الله تعـالى، ليـوحي للسامع إن الرزايا في الله تعالى عطاء منه ومنَّة، وأنه تعـالى محمـود على كل حال.

٢ ـ أخبـر عـن مقتـل أبيـه، ومـا جـرى علـى عترتـه مـن السـبي والاضطهاد، والتمثيل برأسه الشريف.

٣ ـ تساءل كيف يسرُّ المؤمن بعد قتله، ثـم بـيَّن بكـاء الكائنـات عليه من السماوات، والأرض... الخ.

٤ ـ أخبر بالحال الذي صار إليه أهل بيت النبوة (عليهم السلام).

٥ ـ أشار إلى وصية النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فيهم، وإن القوم فعلوا عكس ما أوصـى بـه، إشـعارا للسـامع بحـق آل البيـت،

ووصية النبي فيهم.

ما يمكن استفادته من الخطبة كقواعد للخطابة

١ ـ الوضوح التام

لقد باشر (عليه السلام) الفكرة مباشرة؛ لأن المقام مقام إثارة، وليس للجمهور في مثل هذه الحالات صبر على تفكيك شفرات الأدوات، والصور الفنية، لذا جاءت عباراته تقريرية واضحة، وقد مرَّ الكلام عن أهمية الوضوح في الخطابة.

٢ ـ حرارة العاطفة

قرأنا أنه (عليه السلام) خرج وهو يبكي، وبيده خرقة يمسح بها دموعه، وهذا يوحي بطبيعة الحال بتأثره الشديد بالموقف، وتفاعله مع القضية التي يتحدث عنها، وكلما كان الخطيب متأثرا بالموقف، حارَّ العاطفة، انتقلت عدوى عاطفته تلك للجمهور، ومن هنا نلاحظ تأثر الجمهور الشديد بخطبه الثلاث[1].

٣ ـ إثارة الخيال

(١) ألقى عليه السلام ثلاث خطب، أحداها في جموع أهل الكوفة، والثانية في الشام في محضر يزيد بن معاوية، والثالثة قرب المدينة المنورة، والخطب الثلاث تحمل طابعا واحدا، إلا إن مضامينها مختلفة.

إن إثارة خيال السامع تعمِّق من أثر الخطبة فيه، ومن صور إثارة الخيال التي استفاد منها (عليه السلام) انتقاء المفردات المتقابلة، كقوله: «**الذي بعد فارتفع، وقرب فشهد النجوى**» فهذا التقابل بين المفردات ـ بعد، قرب ـ يثير خيال السامع.

ومن صور إثارة الخيال في الخطبة: توسله بالسجع في بعض مقاطعها «**نحمده على عظائم الأمور، وفجائع الدهور، وألم الفواجع، ومضاضة اللواذع**»، لكنه لم يعر السجع اهتماما في كل مقاطع الخطبة، وسنفرد موضوعا خاصا عن السجع في الخطبة التالية.

٤ ـ التكرار

يكاد يجمع المتخصصون في فن الخطابة، على أن من أبرز خصائص الأُسلوب الخطابي هو التكرار، سواء أكان تكرار للألفاظ باستعمال المترادفات؛ لتهويل أثرها، وتعميق دلالتها في نفس السامع، كقوله (عليه السلام): «**مصيبة ما أعظمها، وأوجعها، وأفجعها، وأكظها، وأفظعها، وأمرَّها**»، أم كان

«**تكرارا للفكرة الواحدة في أكثر من جملة**»[1]، «**والتعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، ليتضح ويقوى تأثيره**»[2]، ونقل عن جوستاف لوبون «**إن التكرار والتوكيد عاملان قويان في تكوين الآراء، وانتشارها، وإليهما تستند التربية في كثير من المسائل، وبهما يستعين رجال السياسة، والزعماء في كل يوم في خطبهم**»[3]، وقد استخدم (عليه السلام) هذا النوع من التكرار «**الذي لا عيب فيه، إذا تغيرت عباراته**»[4]، في أكثر من موضع من الخطبة.

والحاصل: للتكرار أهميته البالغة في الخطابة، لكن من الواضح إن للتكرار مسوِّغات، ومع عدم المسوِّغ يكون التكرار مملا مستهجنا فلاحظ.

---

(١) محاضرات في النثر العربي: الدكتور / حاتم الساعدي: ٩١.

(٢) فن الخطابة: د / أحمد الحوفي: ١٧٢.

(٣) فن الخطابة والتبليغ الإسلامي: د / شمران العجلي: ٦٩.

(٤) فن الخطابة: د/ أحمد الحوفي: ١٧٢.

٥ـ خطبة السيدة زينب عليها السلام في الكوفة

قال الراوي نظرت إلى زينب بنت عليٍّ (عليه السلام) يومئذ، ولم أرَ خِفرة أنطق منها، وقد أومأت للناس أن أسكتوا، فأرتدَّت الأنفاس، وسكنت الأجراس، ثم قالت:

«الحمد لله، والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار.

أما بعد: يا أهل الكوفة! يا أهل الختل[١] والغدر، أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، ألا وهل فيكم إلا الصلف، والنطف[٢]، والعجب،

---

(١) الختل: الغدر وترك الوفاء.

(٢) الصلف: المرأة التي يبغضها زوجها، والنطف: العيب.

والكـذب، والشـنف[١]، وملـق الإمـاء، وغمـز الأعـداء، أو كمرعىً على دمنة، أو كفضة على ملحـودة[٢]، ألا بـئس مـا قدمت لكم أنفسكم، أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنـتم خالدون.

أتبكون وتنحبون؟ أي والله فابكوا كثيرا، واضحكوا قلـيلا، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها[٣]، ولن ترحضوها[٤] بغسل أبدا، وأنَّى ترحضون قتل سليل خـاتم النبـوة، ومعـدن الرسـالة، ومدرة حجتكم، ومنار محجـتكم، ومـلاذ خيـرتكم، ومفـزع نازلتكم، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون.

فتعسا، ونكسا، وبعدا لكم، وسحقا، فلقد خـاب السـعي، تبَّت الأيدي، وخابت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله،

---

(١) الشنف: البغض بغير حق.
(٢) والأصح أو كقصة على ملحودة، والقصَّة: الجص، والملحـودة: التـي وضـعت في اللحد.
(٣) الشنار: العيب.
(٤) الرحض: الغسل.

وضربت عليكم الذلة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة! أتدرون أيَّ كبد لرسول الله فـريتم، وأيَّ كريمة له أبرزتم، وأيَّ دمٍ له سـفكتم، وأيَّ حرمـة لـه انتهكتم؟ لقد جئتم شيئا إدًّا، تكاد السـماوات يتفطـرن منـه، وتنشق الأرض، وتخرُّ الجبال هدًّا.

ولقد أتيتم بها خرقـاء، شـوهاء، كطـلاع الأرض، ومـلء السماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دمـا؟ ولعـذاب الآخـرة أخزى وهم لا ينصرون، فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثار، وإن ربَّك لبالمرصاد»[1].

والبحث في هذه الخطبة الشريفة، يقع في عدّة جهات:

الجهة الأولى: مناسبتها

مناسبة إلقاء هذه الخطبة معروفة لكل من أرتضع محبـة السـبط الشهيد (عليه السلام)، ورافق بقلبه ووجدانه تلك الحمول في رحلة الأسى والأسر، من بلد إلى بلد، ومن مشهد إلى مشهد، فـي صـورة

---

(١) العوالم (مصدر سابق): ١٧: ٣٦٨.

تدمي القلوب، وتقرح الجفون.

وقد ألقت خِفرة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، هذه الخطبة على مسمع أهل الكوفة، الذين تجمعوا حول أُسارى آل البيت (عليهم السلام)، في موقف تقسَّمت فيه ألبابهم: بين التفرُّج، والتحسُّر، والتصديق، والتكذيب! أحقًّا آل عليٍّ (عليه السلام) سبايا في بلدة وصف أهلها بأنهم لهاميم العرب، وبذل قصارى جهدة لتحقيق العدل والمساواة فيهم؟ فيعلوا الضجيج إثر ذلك من متسائل ردَّ يده إلى فيه دهشة وذهولا، وآخر باكٍ، وثالث متأسف، ورابع متفرِّج...... فأومأت عند ذاك للجمع ـ كما يقول الراوي ـ أن اسكتوا، فسكتت الأنفاس، وهدأت الأجراس، وطفقت عقيلة بني هاشم تتدفق كالشلال الهادر الذي ينحدر من قمة جبل، وأرغمت السامع لأن يفتح لذلك الخطاب سمعه وعقله، ولم يسمع عن خطبة أثَّرت في الجمهور كما أثَّرت هذه الخطبة، في حشد متشتت الأهواء والنوايا، حتى قال الراوي: «**فوالله! لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا أيديهم في**

أفواههم، ورأيت شيخا واقفا إلى جنبي يبكي حتى أخضلت لحيته»[١].

إن الحشد يسهل التأثير فيه إذا كان يجمعه هدف واحد، وتعم الحضور ثقافة واحدة، أما إن لم يكن كذلك، فمن الصعب التأثير فيه حتى يجعل الخطاب ذلك الجمع حيارى ويرغمهم إلى العدول عن مواقفهم إلى التفاعل، والتعاطف وخصوصا أولئك الذين لم يكن لهم هوى في آل البيت (عليهم السلام) فأجهشوا بالبكاء، وارتفع نحيبهم وصراخهم، وهزهم خطابها من الأعماق.

الجهة الثانية: دراسة لمضمون الخطبة

ابتدأت عليها السلام خطبتها بمقدمة أثنت فيها على الباري عز وجل، وربطت الثناء عليه بالصلاة على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ووصفته بأنه أبوها لتستكمل الحجة على السامع بكونها من آل بيت النبوة، ولتوحي للسامع بما إذا كان النبي صلى الله عليه وآله أبوها فهو أب للحسين (عليه السلام) أيضا، وذلك لتعظيم

---

(١) اللهوف على قتلى الطفوف(مصدر سابق): ٨٨.

وتهويل ما اقترفت أيدي الجناة بحقها وحق أخيها.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام قبل الدخول في مضامين الخطبة، أنها وجهت اللوم والتقريع لأهل الكوفة، وحملتهم مسؤولية الجناية، بينما عكست عليها السلام الأمر في الشام، حيث ألقت باللائمة على الطاغية يزيد، وقرَّعته بما يستحقه. والسبب في ذلك واضح، فإن بعض أهل الكوفة هم الذين دعوا الحسين (عليه السلام)، وزعموا أنهم قاتلوا أنفسهم دونه، لذا وصمتهم بالغدر وترك الوفاء، وتساءلت مستنكرة عن بكائهم، ثم ضجَّت بالدعاء عليهم «**فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة**»، وشبَّهت حالهم نباقضة الغزل، كناية عما أبرموه من العزم بالإطاحة بيزيد، ثم خارت عزائمهم فحاربوا الحسين من أجله.

واستطردت بعد ذلك تبيِّن خصائصهم النفسية، فهم يتخذون الإيمان مكرا وخديعة، وعللت ذلك بانطواء سرائرهم على الصلف والنطف ـ أي العيب ـ وذكرت حالهم مع الحكام، وكره الحكام لهم كما يكره الزوج المتسلط زوجته، ومردُّ ذلك برأيها الشريف،

وهو شعورهم بالنقص وعقدة الحقارة، فسيتعيضون عن ذلك بالتظاهر بالتديُّن حينا، وبتملق الحكام حينا آخر، لعلهم ينالون شيئا من فتات موائدهم.

وقد وظفت عليها السلام (هل) لمعنى النفي، وهو من بديع التعبيرات المجازية التي لا تظهر للكلام قيمة فنية إلا به، وهي تحذو هنا حذو القرآن في قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ...﴾[1]، مما يدل على عمق ثقافتها اللغوية، وتأثرها بالقرآن ثقافة وبلاغة، ثم تسللت عليها السلام إلى أعماق نفوسهم لتكشف لهم عن سوءتها بصراحة أكبر، فذكرت من خصائصهم: العجب، والكذب، وشدة البغضاء ـ أي الطبيعة العدوانية التي تغلف أعماقهم ـ وملق الإماء، هو كناية عن التودد باللسان.

ثم كشفت سجية أخرى، وهي الضعف أمام الأعداء والتليُّن لهم (وغمز الأعداء)، وشبهتهم بتشبيهين آخرين، سوى ما ذكرت

---

(١) الدهر: ٧٢.

من التشبيه بناقضة الغزل، وهما: مرعى على دمنة، أو قصَّة على ملحودة.

إن ما يحيِّر الألباب، ويذهل العقول، خيالها الواسع عليها السلام وخصوبته، مع أن الظروف التي كانت تحيط بها، كانت تشلُّ القدرة على التفكير، ولكن لاغرو فهذه سمة الأديب ـ وأستميحها العذر ـ فهي العالمة غير المعلمة، والفهمة غير المفهَّمة، وجودت الذهب لا تنكشف إلا حينما يعرض على النار، وحاصل التشبيهين: إن ظاهرهم جميل، لكن باطنهم فاسد قبيح.

وتذكِّر فرعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) ما تخرم طريقته من الارتباط بالله سبحانه، وحضوره الدائم في وجدانها، تذكِّر إنه تعالى الرقيب من وراء كل شيء، وما يقدِّم المرء يحاسب عليه، في توظيف رائع للآيات القرآنية، وهو ما يعبر عنه بالتضمين وسنقف عنده بعد قليل.

ونقف أيضا عند ظاهرة أخرى لاحظناها في خطبة الإمام زين العابدين (عليه السلام)، وهي العود إلى ما كان منه البدء، إذ

عادت لتسأل باستغراب «**أتبكون، وتنحبون؟**» وقد رتبت هذه المرة نتيجة أخرى، وفرَّعت تفريعا آخر على بكائهم هذا، فمن حقهم البكاء؛ لأنهم ذهبوا بعارها وشنارها، ولن يغسلوا ذلك العار أبدا، وكيف يمكن غسل عار قتل سليل النبوة ومعدن الرسالة، وطفقت تعدد خصال أخيها (عليه السلام)، وتبرز مكانته الدينية والاجتماعية، ثم ضمنت كلامها آية أخرى لتشير إلى أن جريمة قتل سيد الشهداء جرم عظيم.

وعادت إلى توبيخهم، وبينت عاقبة جرمهم، وهو البواء بغضب الله، وجني المسكنة والذلة، وهو أمر حتمي، وقاعدة لن تخرم بحق كل من يترك طاعة من هو أولى بالطاعة، ويحوِّل طاعته إلى من هم أدنى.

وذكرت في المقطع التالي عظم الجريمة، وأثرها الكبير في نفس رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وأثرها الخطير في هدم أسس الإسلام، ودعائمه المتمثلة بأحد الثقلين، وهو هنا الإمام الحسين (عليه السلام).

ثم تثني إلى أن عدم وقوع العذاب والسحق الإلهي، لا يعني أنه تعالى قد أغمض عن جريمتهم، فإنه لا يستخفَّه البدار، ولا يخاف فوت الثار.

والملاحظة الأخيرة التي نسجلها هنا: عمومية خطابها لكل من شرك بدم الحسين (عليه السلام)، حتى من لم يحضر للقتال؛ لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولوقوفهم موقف المتفرج إزاء ذلك الحدث الجليل.

الجهة الثالثة: دراسة لأهم عناصرها الفنية

تضمنت هذه الخطبة العصماء العديد من العناصر الفنية الجديرة بحق أن تكون قواعد يصدر منها الخطيب لكي يكون ناجحا في خطابته، ومن هذه العناصر:

١ ـ قصر الجمل

من المهم أن تكون الجمل التي يلقيها الخطيب على مسامع جمهوره قصيرة، فلا يطيل الفصل ـ مثلا ـ بين المبتدأ والخبر، أو بين الفعل والفاعل، أو غيرهما من المتقارنات؛ لأن الجمهور ليس

له القدرة الكافية ولا الصبر على التأمل في الجمل لاكتشاف الترابط والصلة فيما بينها، فهو يلاحق المفردات والتراكيب من فم الخطيب، ولا وقت له للربط بين الجمل، أو الصبر وانتظار نهاياتها إذا طالت.

«إن النثر الخطابي ينبغي أن يكون إيقاعا غير مطَّرد، ولا ثابت الوزن؛ لأن ذلك يبعث على الملل، وأن تكون العبارة هي الأخرى متقسِّمة، متقابلة، قصيرة، وتفضَّل على العبارة المرسلة الطويلة؛ لأن العبارة التي يدرك السامع نهايتها تسرُّ السامع، وقد جبل الإنسان على السرور والفرح برؤية النهايات»(١)، لذا **«فبقدر ما يقتصد الخطيب على السامع في ألفاظه، وجمله، فإنه يوفر من انتباهه لإدراك معانيه والتأثر بها»**(٢).

وتزداد أهمية قصر الجمل فيما **«إذا كان الخطيب يعمد إلى**

---

(١) في بلاغة الخطاب الإقناعي (مصدر سابق): ١٠٤.
(٢) الخطابة: د / نقولا فياض: ٤٢.

التأثير السريع، فإن الجمل القصار أنسب؛ لأنها سريعة الأداء، سريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطرقات المتوالية على الحديد المحمَّى تؤثر فيه، وتشكله»[1]، وقد امتازت خطبتها (عليها السلام) بهذه الميزة ـ قصر الجمل ـ بل كل خطبهم (عليهم السلام) التي مرَّت بنا كانت على هذا النسق، مما يعني ذلك إن تقصير الخطيب لجمله، يعني تأثيرا أكبر في جمهوره.

٢ ـ إثارة الخيال

مر في معرض الكلام عن بعض الخطب السابقة، الحديث عن إثارة الخيال، وأهمية إثارة مشاعر الجمهور عن طريق إثارة الخيال في الخطابة، وسنتحدث هنا عن الأساليب التي استخدمتها عليها السلام في تحقيق عنصر الإثارة، وهذه الأساليب هي:

أ ـ التقابل

«ويقصد به: أن يكون التنوُّع خاضعا لنمط من العلاقة

(١) فن الخطابة: د / احمد الحوفي: ١٨٨.

المتقابلة بين ظاهرتين أو ظواهر»[١]، مثل الضحك والبكاء، والمهل والبدار، وكثير وقليل، إذا كانت الظاهرتان من المتضادات، وقد تكون «**منقسمة إلى أجزاء يقف كل جزء منها قبالة الأجزاء الأخرى**»[٢]، كقولها عليها السلام «**لقد جئتم بها خرقاء، شوهاء**»، وكالتقابل بين «**خاب السعي، وتبَّت الأيدي، وخسرت الصفقة**»، وكالتقابل بين (الدمنة والقبر).

ب ـ السجع

وهو مصطلح أدبي يراد به: «**اتفاق فقرتين في الحرف الأخير**»[٣]، أو «**تواطؤ، أو توافق الفواصل في النثر على حرف واحد**»[٤].

والسجع أنواع لا حاجة لتفصيل القول فيها، إلا أن أفضل أنواعه: القصير «**وهو ما كان مؤتلفا من ألفاظ قليلة؛ لأنه يدلُّ**

(١) القواعد البلاغية: د / محمود البستاني: ١٤٦.

(٢) م: ن: ١٤٧.

(٣) تكوين البلاغة: الشيخ علي الفرج: ٣٤٣.

(٤) البديع في ضوء الأساليب القرآنية: الدكتور: عبد الفتاح لاشين: ١٢٨.

على قوَّة المنشئ، وتمكنه من الصناعة، لصعوبة إدراكه، وعزَّة اتفاقه، ووعورة مذهبه، وبُعد تناوله، ثم هو أجمل صورة، وأحلى موقعا»[١]، وهذا من الناحية الأدبية.

أما من الناحية الفنية: فإن الكلام المسجوع يتميَّز بالقدرة الفائقة على التأثير والإيحاء؛ لأنه يؤدي إلى إذكاء الانفعال، وتحقق عملية الإقناع بواسطة الحماسة، وقد زيَّنت عليها السلام خطبتها بالسجع، وإن لم تهتم به في كل مقاطع الخطبة، إلا أنه كان واضحا فيها عموما، حتى أثار إنتباه عبيد الله بن زياد فقال: «**هل هذه سجَّاعة! ولعمري لقد كان أبوك شاعرا سجَّاعا، فردّت: ما للمرأة والسجاعة، فإن لي عن السجاعة لشغلا**»[٢]، وقولها هذا يعني، إن تلك الموهبة كانت مركوزة في فطرتها، وتنطلق عن لسانها عفوا دون تكلُّف، أو انتقاء متعمَّد للمفردات.

صحيح إن النبي صلى الله عليه وآله قد أضعف من شأن السجع

(١) م: ن: ١٣١.

(٢) اللهوف على قتلى الطفوف (مصدر سابق): ٩٤.

في خطبه، ولم يؤله اهتماما، لكن ذلك لا يعني أنه لم يستعمله في كلام أبدا، وإن الإسجاع في الكلام أمر مذموم، وما تراه من الحملة الشعواء على ظاهرة السجع في خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) من قبل بعض الكتاب، الهدف منها هو التقليل من القيمة الفنية لخطبه (عليه السلام)[١].

ج ـ التعبير الصوري

ذكرنا المقصود من مصطلح الصورة فيما سبق، والمتأمل في هذه الخطبة يجد حشدا هائلا من الصور الفنية البديعية الرائعة التي تدل على خصوبة خيال المتكلمة، وهي تسموا بالسامع لتجعله يتصوَّر بخياله تلك المشاهد المعنوية التي سبكت بشكل حسِّي.

وقد تضمنت الخطبة عددا من التشبيهات، والتشبيه: هو بيان إن شيئا شارك غيره في صفة، أو أكثر بواسطة أداة لغوية كالكاف أو مثل[٢]، كقولها عليها السلام: «**كمرعى على دمنة، أو قصة على**

(١) ينظر: ما كتبه عبد الحميد بن أبي الحديد في الردِّ على هذه الدعاوى في شرح نهج البلاغة: ١: ١١١ ـ ١١٢.
(٢) تكوين البلاغة (مصدر سابق): ٢٤١.

ملحودة»، وكقولها: «**كطلاع الأرض، وملء السماء»**، وقولها: «**إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا...»**.

كما تضمنت الخطبة طائفة من الاستعارات الرائعة، كقولها: «**ولن ترحضوها بغسل أبدا»**، وقولها: «**وملق الإماء، وغمز الأعداء»** الذي هو من لوازم ما له الخنوع، والتطامن للقوي، وفيما ذكرنا كفاية على المطلوب وليس الهدف الاستقصاء.

٣ ـ الاقتباس

وهو لغة: طلب المتناول شعلة من النار، ثم استعير لطلب العلم والهداية[١]، واصطلاحا: «**تضمين النثر شيئا من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما»**[٢]، ولا تخفى أهمية الاقتباس من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وأحاديث آل البيت (عليهم السلام) لتدعيم الخطبة بها؛ لأن ذلك يسهم في إقناع الجمهور، وأسر عواطفهم، فينصاع السامع

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (مادة قبس).
(٢) البلاغة الواضحة: علي الجارم ومصطفى أمين: ٢٧٠.

للمتكلم، ويسلم له زمام عقله ومشاعره؛ لأنه يشعر إن مجرَّد إدراج كلام آخر في ضمن كلامه، وبشكل منسَّق ومنسجم، يدلُّ على فطنة المتكلم، وبراعته، ومهارته اللغوية، والناس عامة يقدِّرون الموهبة وأصحاب المواهب، فيسموا الخطيب بذلك في نظر السامع، ويزداد تأثيره فيه.

وقد تضمنت خطبتها عليها السلام على قصرها، خمسة اقتباسات من الكتاب العزيز، وقد غيَّرت بعض الآثار المقتبسة وهو أمر سائغ.

٤ ـ الإيقاع في العبارة

الإيقاع هو: «**الأصوات التي تنتظم بشكل خاص من التعبير، بحيث يبتعث الإثارة، والإمتاع، والإحساس بالجمال عند السامع**»[١]، وقد يعبَّر عنه أحيانا بالموسيقى.

ومن «**صفات الأُسلوب الخطابي أن يكون موسيقيا، رنانا،**

(١) الإسلام والفن: د / محمود البستاني: ٢٦٩.

خفيفا على اللسان، حسن الوقع في الآذان»[١]، **والإيقاع بعد «واحد من أبرز العناصر التي تمنح العبارة صفتها الفنية، بل يمكن القول إنه العنصر الوحيد الذي يكسب النص تلك الصفة، لبداهة إن ما يميِّز الأدب عن غيره، هو التعبير الجميل عن الحقائق»**[٢].

وإذا كان الأدب والفن ـ والخطابة لون منهما ـ عموما قائمين على أساس عاطفي، انفعالي «**فإن الإيقاع يظلُّ واحدا من أشدِّ الأشكال تعبيرا عنه، بصفة إن العاطفة تستثار حينما تواجه منبِّها يلحُّ على وجدان الشخص، أو تركيبته النفسية»**[٣].

ويتمثل الإيقاع بأشكال فنية مختلفة منها:

أ ـ جرس العبارة

الجرس لغة: الصوت الخفي[٤]، وهو «**قيمة جوهرية في**

(١) فن الخطابة: د / أحمد الحوفي: ١٩٢.
(٢) القواعد البلاغية: د / محمود البستاني: ٢٦.
(٣) الإسلام والفن: د / محمود البستاني: ٢٦.
(٤) الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري (مادة جرس).

الألفاظ وبنائها اللغوي، وهو أداة التأثير الحسي بما يوحيه إلى السامع من اتساق اللفظة، وتوافقها مع غيرها من الألفاظ في التعبير الأدبي»[١].

إن «اقتران الألفاظ بالصوت وسيلة الإنسان التعبيرية في الكلام، والتصويت سمة يشترك فيها الإنسان والحيوان، إلا إن الإنسان استطاع بتقطيعه لهذا الصوت، أن يحوِّله إلى اصطلاحات تعبيرية قادرة على إيصال تجاربه الشعورية، وعواطفه الذاتية للآخرين، ثم أرتفع بها من التفاهم إلى التأثير والسيطرة الشعورية، والتحكم في العواطف»[٢]. «إن حركة الكلمات، وصوتها يدغدغان الاهتمامات بعمق وأُلفة حتى قبل أن نفهم معناها عقليا، وقبل أن نشكل الأفكار التي

(١) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: الدكتور: ماهر مهدي هلال: ٢٠.
(٢) م: ن: ١٢٥.

تسببت عن هذه الكلمات»[1].

وقد أجرى بعض المتخصصين تجربة على مجموعة من الطلاب، فأسمعهم قصيدة بلغة لا يفهمونها، ولكن برغم عدم معرفتهم لمعنى المفردات، إلا أن القصيدة أثَّرت في نفسياتهم، فاستوحى أن التأثير إنما جاء من جرس الألفاظ لا من شيء آخر[2].

إن بعض الحروف لها مميزات خاصة، كحروف الذلاقة، والشفوية ـ مثلا ـ كالراء، واللام، والنون، والميم، والباء، والفاء، فهذه الحروف «**لمَّا ذلق بهنَّ اللسان، وسهلت عليه في المنطق، كثرت في أبنية الكلام**»[3]، وما استعملت هذه الحروف في كلام، إلا وزادته حلاوة، وطلاوة، وسهولة، وعذوبة، وهكذا بقية الحروف لكل مميزاته، وجرسه الخاص، وقدرته التأثيرية والإيحائية الخاصة به، والآتية من ذلك الجرس. «**فالجرس يشكل**

(١) م: ن: ١٣٢.
(٢) م: ن.
(٣) م: ن: ١٤٤.

خصيصة ذاتية محسوسة في بناء اللفظة من خلال تباين أجراسها، وحروفها التي بنيت عليها، ثم تشكل هذه الحروف في ائتلافها وتنافرها نغم الألفاظ، وقيمتها الحسيَّة»[١].

ومن هنا تؤثر كلمة على كلمة، ولفظة على أخرى، وإنما تكون المفاضلة بين الكلمتين ليس في محتواها الدلالي فحسب، بل لجرس ألفاظهما، ومن الواضح إن بعض التراكيب فيها جمال موسيقي أكثر من تراكيب أخرى، فانظر الفرق في جرس الألفاظ بين قول الشاعر: وألقى في الغبيط بعاعه[٢]، وبين قوله تعالى: «**فترى الودق يخرج من خلاله**»[٣]، مع أن كلتا الجملتين تصفان هطول المطر، ولكن أين تلك من هذه.

والحاصل: إن ما ذكرناه من الحديث عن جرس الألفاظ، هو السِّرُّ في سهولة النطق بكلمات خطبتها عليها السلام، وعذوبة ألفاظها، على الرغم من أن بعض الألفاظ التي وشَّحت بها الخطبة،

(١) م: ن: ١٧٠.
(٢) شرح ديوان امرئ القيس بن الحارث الكندي: عبد الرحمن المصطاوي: ٦٨.
(٣) النور: ٤٣.

ليست من نوع الألفاظ المتداولة على الألسن، فكلمة (ختل) لها نفس المعنى الدلالي لكلمة (حقد)، ولكن لو أنها جمعت بين كلمتي (حقد وغدر) قائلة: يا أهل الحقد والغدر، لأصبح النطق بالجملة أثقل على اللسان، وأخرم للآذان من القول: يا أهل الختل والغدر.

والخلاصة: إن الألفاظ تجري بالنسبة للسمع مجرى الألوان للعين، والروائح للأنف، فالعين تسرها الألوان الزاهية الجميلة، والأنف يلتذُّ بشمٍّ الروائح الطيبة، وكذلك الأذن، فالأسماع تشنف بالأصوات ذات الجرس الموسيقي العذب الخلاب، فانسجام الحروف، وحلاوة جرسها، وتناغم فقراتها، والتلاؤم بين المعنى والمبنى، كل ذلك يجعل للجمل والمفردات جرسا خاصا يثير البهجة، واللذة، والشغف، وما عليك ـ عزيزي القارئ ـ إلا أن تيمم نظرك مرَّة أخرى صوب خطبتها، لتشعر بذلك الإحساس الذي وصفناه لك.

ب ـ السجع

وقد مرَّ الكلام فيه

ج ـ التوازن أو الموازنة

التوازن هو «**تساوي الفاصلتين في الوزن**»[١]، من غير اعتبار للقافية، والمراد من الفاصلة تلك الكلمة التي يتم الوقوف عندها قبل الدخول في الجملة التالية، ككلمتي ـ نبوَّة ورسالة ـ من قولها عليها السلام «**قتل سليل خاتم النبوَّة، ومعدن الرسالة**»، وكقولها «**ملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، ومنار محجتكم، ومدرة ألسنتكم**» فكلمتا ـ خيرة وحجة ـ متفقتان وزنا، وكذا ـ نازلة وألسنة ـ

والمهم: إن اتفاق الفواصل في الوزن، وإن لم تكن الفاصلتان من قافية واحدة، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يمنح العبارة إيقاعا خاصا، وجوا جماليا يعمِّق أثر المعاني في النفوس.

د ـ التجانس أو التجنيس

وهو «**من الحلي اللفظية، والألوان البديعية التي لها تأثير**

---

(١) جواهر البلاغة (مصدر سابق): ٢٥١.

بالغ يجذب السامع، ويحدث في نفسه ميلا»[1] لمواصلة الاستماع، والتواصل مع المتكلم، والتجانس يعني «**تشابه لفظين في النطق، أو الرسم مع اختلاف المعنى»**[2].

من قبيل بعض المفردات التي وردت في الخطبة ـ رقأت وهدأت ـ ومثل ـ الصلف والنطف والشنف ـ فهذه الكلمات مسجوعة ومتوازنة، وإضافة إلى ذلك فهي متجانسة.

ومن غير المهم أن نخوض في أشكال الجناس وأنواعه، إلا أن ما يهمنا في الحديث عنه، قدرته الإيقاعية والتأثيرية، فلا شك «**إن التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب له الآذان، وتهتزُّ له أوتار القلوب. والمجنس يقصد اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا، أو لفظا مرددا لا يجني منه السامع غير التطويل والسآمة، فإذا هو يروع ويعجب، ويأتي**

(١) البديع في ضوء الأساليب القرآنية (مصدر سابق): ١٧٠.
(٢) تكوين البلاغة (مصدر سابق): ٣٤٠.

بمعنى مستحدث يغاير ما سبقه كل المغايرة، فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة»(١)، ولا يخرج هذا في واقع الأمر عمَّا يصطلح عليه بقانون تداعي المعاني(٢)، وذلك عندما يحدث المتكلم علاقة بين مدركين مقترنين في الذهن، فيستدعي حضور أحدهما الآخر والثالث عند حضور الثاني... وهكذا، ويهدف ذلك قطعا تعميق الأثر في نفس السامع، وشدِّه إلى مضمون الخطاب.

٥ ـ الإكثار من أحرف الاستفتاح والتأكيد

من السمات البارزة في هذه الخطبة، كثرة أحرف الاستفتاح والتنبيه فيها مثل (أما و ألا)، والتحقيق مثل (قد التحقيقية)، وهذا يدعونا إلى التوقف قليلا عند هذه الأدوات ووظائفها البلاغية.

ل(ألا وأختها أما) وظيفتان في النص الأدبي:

الوظيفة الأولى: إثارة انتباه المخاطب(٣)، ويعبر أرسطو عن ذلك

---

(١) البديع في ضوء الأساليب القرآنية (مصدر سابق): ١٧٠.

(٢) تكوين البلاغة (مصدر سابق): ٣٠٩.

(٣) نص على ذلك جمع من أئمة اللغة والنحو، ينظر: شرح الكافية للرضي

ب(الإهابة بالسامع)[(١)].

لقد بات من الحقائق المعروفة إن الأساس الذي تتوقف عليه سائر العمليات العقلية هو الانتباه؛ لأن «**الانتباه معناه تركيز الشعور في شيء، والإدراك هو معرفة الشيء، وبالتالي فالانتباه يسبق الإدراك ويمهد له**»[(٢)]، وعليه فلا يمكن أن نفهم شيئا، أو نفكر في شيء، أو نتخيَّل شيئا ما دون أن تسبق هذه العمليات جميعا عملية الانتباه.

والمشكلة «**إن الانتباه لا يثبت على شيء واحد، إلا في لحظة وجيزة من الزمن**»[(٣)]، إلا في حالات خاصة لا يعنينا الحديث عنها إلا بقدر ما يرتبط بموضوعنا، وهي ضرورة أن يوفر الخطيب القدرة على جذب انتباه المخاطبين إليه باستمرار؛ لأن «**جلب انتباه السامعين هدف وغاية بالنسبة للخطيب،**

الاسترابادي: ٤: ٤٢١، ومغني اللبيب: لابن هشام الأنصاري: ١: ٦٨ و ١: ٥٧.

(١) الخطابة: أرسطو (مصدر سابق): ٢٣٨.

(٢) أصول علم النفس (مصدر سابق): ١٧٨.

(٣) م: ن: ١٨٣.

فمحتوى الخطبة يجب أن يصل إلى الجمهور، ويبلغ بذلك مبلغه وغايته»[١].

وللاستهلال في بعض صوره القدرة على «تحقيق الإثارة النفسية لدى السامع، والإثارة النفسية المعنية هنا، هي أن يثير الخطيب في استهلاله تلك الأحوال، أو ذلك الوضع النفسي الخاص ليحقق مبدأ جلب الانتباه، وانقياد السامع إلى جوهر الموضوع، وبالتالي وصول الرسالة بشكل أفضل»[٢]، ولا يكفي أن يكون ذلك ـ جلب الانتباه ـ في أول الخطبة فقط، فإن «جذب انتباه السامعين أمر مشترك بين كل أجزاء الكلام كلما أقتضى الأمر ذلك؛ لأن الانتباه يتراخى في سائر المواضع أكثر منه في الاستهلال، ولهذا فمن المضحك أن نقتضي ذلك في البداية حيث الجميع يصغون بانتباه شديد؛ ولهذا فإنه حين تأتي اللحظة المناسبة ينبغي على الخطيب

(١) الاستهلال فن البدايات (مصدر سابق): ٤٩.

(٢) انظر: م: ن: ٥١.

أن يقول: أعيروني انتباهكم، أو التفتوا إليَّ، أو ما شاكل ذلك من الصيغ والعبارات»[١]، إلا أن أمثال هذه التعابير كانت سائغة في الخطابة اليونانية، ويستخدمها بعض الخطباء المعاصرين منا، لكن في الخطابة العربية يستعاض عن هذه التعبيرات ببعض الأدوات التي تؤدي وظيفة التنبيه، كأما، وألا، والنداء بمثل: أيها الناس، أيها القوم، يا أهل كذا.... الخ، وكذلك هاء التنبيه، وقد لاحظت ذلك في الخطب التي أوردناها عنهم (عليهم السلام).

أما في خطبة السيدة زينب عليها السلام على الخصوص، فقد كررت التنبيه بألا في ثلاث مواضع، إضافة لابتدائها بأما:

«**ألا، وهل فيكم إلا الصلف**»

«**ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم**»

«**ألا ساء ما تزرون**»

الوظيفة الثانية: هي تحقيق وتأكيد مضمون مدخولها، وبهذه

---

(١) انظر: الخطابة: أرسطو (مصدر سابق): ٢٣٩.

الوظيفة تشترك أحرف التنبيه مع إي الجوابية[١]، وقد التي للتحقيق[٢]، والتي ترددت هي الأخرى في خطبتها:

«إي والله فابكوا كثيرا...»

«فلقد خاب السعي... »

«لقد جئتم بها شوهاء...»

«لقد جئتم شيئا إدًّا...»

وحقق الأمر: أثبته وصدَّقه، يقال: حقق الظن، وحقق القول، والقضية، والشيء، والأمر: أحكمه، ويقال: حقق الثوب: أحكم نسجه[٣]. وللأسف لم يعر البلاغيون التحقيق اهتماما كبيرا، مع أنه يفترض أن يكون صنوا للتأكيد، عند تعرضهم لأحوال الخبر، فقد قسَّموا الخبر كما هو معلوم باعتبار حالات المخاطب إلى ثلاث

(١) إي الجوابية: قال ابن هشام في مغني اللبيب ١: ٧٦ (أنها تفيد تصديق المخبر ولإعلام المستخبر).

(٢) نص كل أئمة اللغة والنحو على إفادتها هذا المعنى، انظر: مغني اللبيب: ١: ١٧٤.

(٣) المعجم الوسيط (مادة: حقق).

حالات:

فإما أن يكون السامع خالي الذهن لا يعرف عن الخبر شيئا، وإما أن يكون شاكا مترددا في صحته، وإما أن يكون منكرا للحكم الذي تضمنه الخبر، معتقدا خلافه، وسمَّوا كل ضرب من هذه الضروب باسم خاص(١)، وقالوا في القسم الأخير (الخبر الإنكاري): بوجوب تأكيد الكلام للسامع بمؤكد، أو مؤكدين أو أكثر، ثم ذكروا أحرف التوكيد في مطولاتهم(٢)، لكنهم لم يفعلوا ذات الشيء مع التحقيق، ولم يفردوا بابا لأحرفه، وإنما ذكروها في أبواب متفرقة كالتنبيه، والتأكيد، والجواب...

ولعل مردَّ ذلك هو عدم تفريقهم بين التحقيق والتأكيد حتى عدّه بعضهم شيئا واحدا(٣).

وكان الأجدر أن يقسِّم المتكلم بدوره عند إلقائه للخبر إلى قسمين:

---

(١) جواهر البلاغة (مصدر سابق): ٤٤.

(٢) انظر: معجم علوم اللغة العربية: الدكتور: محمد سليمان الأشقر.

(٣) انظر: علم المعاني: الدكتور / عبد العزيز عتيق: ٤٥.

فهو إما أن يلقي الخبر وهو غير متأكد من تحققه ـ أي ثبوت الحكم للموضوع ـ كما لو كان ظانا به، أو مترددا في صحته، أو يثبت الحكم للموضوع على سبيل التجوُّز والمبالغة، وإما أن يكون حين إلقاء الخبر متأكدا، متحققا من صحة إخباره، بغض النظر عن حال السامع تجاه الخبر، ووظيفة التحقيق هنا إقناعية بحتة، يقصد بها التأثير في نفسية السامع بتصديق المخبر لنفسه.

خلاصة البحث

الخطابة فن من فنون القول يخاطب بها الجمهور، ويقصد بها إقناعه واستمالته عن طريق السمع والبصر، فالتوفر والنظر في كل ما يؤدي إلى الإقناع واستمالة الجمهور، وزيادة التأثير فيه أساس لهذا الفن.

ومن هنا تدرس خطب مشاهير الخطباء للتعرف من خلالها على الأسباب التي أدَّت إلى نجاحها وتأثر الجمهور بها، وقد استنتجنا من الخطب الخمس السابقة بعض الأصول أو القواعد التالية:

١ ـ من الضروري الابتداء بمقدمة تهيب بالجمهور وتهيئهم للاستماع، ومن الأفضل أن يلمح المتكلم في المقدمة إلى مضمون الخطاب، والغرض من إلقائه.

٢ ـ يجب أن يكون الخطيب واضحا في عرضه للأفكار والمعلومات التي يقولها للجمهور، وواضحا في تراكيبه أيضا؛ لأن الوضوح أحد أهم ركائز الخطبة الناجحة.

٣ ـ تنظيم الأفكار والمعلومات وتبويبها بشكل منطقي بحيث يسلم إلى المسبب، والمقدمة إلى النتيجة وهكذا.

٤ ـ أن يعمد إلى تنبيه الجمهور كلما أحسَّ منه فترة أو شرودا، إما بواسطة النداء، أو باستعمال بعض أدوات التنبيه المار ذكرها.

٥ ـ إن الإيجاز والاقتصاد في الخطبة يزيد من فاعلية الخطاب، ويشوِّق السامعين لكلام المتكلم، ويوفر من انتباههم، ومن هنا يفضل عدم التطويل خصوصا إذا كان عدد الجمهور قليلا.

٦ ـ مراعاة الجوانب الأخلاقية بتطبيق ما يأمر به على نفسه أولا.

٧ـ الاعتماد على بعض الأساليب البلاغية، فلا شيء من فنون القول له القدرة على التأثير العميق مثل الأساليب البلاغية، كالصور الفنية من التشبيه، والاستعارة، والكناية، والتضمين، والتسجيع، والموازنة... الخ.

٨ـ ولكي يتحقق التفاعل بين الخطيب والجمهور إيجابيا، يجب أن يكون الخطاب ملائما للموقف معبرا عن مشاعر الحضور وهمومهم وآلامهم.

٩ ـ أن يكون الخطيب صادقا في عاطفته معتقدا بما يقول، وآية ذلك ظهور الحماس على الخطيب، مما يعمِّق تأثيره في الجمهور.

١٠ ـ إن من أقوى وسائل التأثير إثارة مشاعر الجمهور عن طريق تحريك مخيلة السامع، لارتباط الخيال بالمشاعر والعواطف، فالعواطف قد لا تجد في الواقع ما يفي بالتعبير عنها وتصويرها، ومن ثم نلجأ إلى الخيال لنجد فيه أداة لتحقيق ذلك.

١١ـ التوكيد والتكرار من أهم وسائل إقرار المعنى في القلوب، وبثه في النفوس؛ لحملها على التصديق، فإن الأمر إذا ما أُكد انتهى بالتكرار إلى الرسوخ في النفوس على أنه حقيقة ثابتة.

١٢ـ لابد أن تكون جمل الخطيب قصيرة، ليشتد التركيز عليها ويقوى أثرها.

١٣ــ الاقتباس من الآثار الشريفة والاستشهاد بها، كالآيات

القرآنية، والأحاديث الشريفة تسهم في زيادة ثقة الجمهور بالخطيب، والثقة بمصدر المعلومة أحد أهم عناصر التأثير.

١٤ ـ التنوع في أُسلوب العرض، فلا يعرض الخطيب الأفكار والمعلومات بطريقة واحدة رتيبة، بل عليه أن يتفنن في عرضها، فيقدم الدليل مثلا ويؤخر عرض الفكرة، أو يفعل عكس ذلك،

١٥ ـ وحدة الموضوع من الأمور المهمة في الخطابة، فلا ينبغي للخطيب أن يفرغ الخطبة من وحدتها ويحولها إلى استطرادات لا نهاية لها.

وأختم بالقول إن ما ذكر هو ليس كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال، فللبحث والتحقيق فيه متسع كما لا يخفى، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

المصادر

* القرآن الكريم.
١. أدب الخطابة الدينية: الدكتور: عبد الرحمن عيسى، دار الإيمان للنشر، دمشق ـ سوريا، ١٤٠٥هـ
٢. الأدب السياسي الملتزم في الإسلام: الدكتور: صادق أئينة وند، والدكتور: عباس نصر الله، دار التعارف للمطبوعات: بيروت. بدون سنة الطبع.
٣. الاستهلال، فن البدايات: ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد، ١٩٩٣م.
٤. الإسلام والفن: الدكتور محمود البستاني، نشر: مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢م.
٥. الأسلوب: الدكتور: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية،

الطبعة الخامسة. بدون سنة الطبع.
٦. أشعة من بلاغة الإمام الصادق: عبد الرسول الواعظي، دار الهداية: النجف، ١٣٨٣هـ
٧. أصول علم النفس: الدكتور: أحمد عزت راجح، نشر: المكتب المصري الحديث، بدون سنة الطبع.
٨. الإنسان ذلك المجهول: ألكسس كاريل، الناشر: مكتبة المعارف، بيروت: ١٩٨٣م.
٩. البديع في ضوء الأساليب القرآنية: الدكتور: عبد الفتاح لاشين، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة، ط١: ١٩٩٩م.
١٠. البلاغة الواضحة: علي الجارم، ومصطفى أمين، نشر: مؤسسة الإمام الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط٣: ١٤٢١هـ
١١. البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، دار الفكر للجميع: ١٩٦٨م.
١٢. البيان وفن الخطابة: الشيخ محمد تقي فلسفي، ترجمة: عباس حسين الأسدي، مؤسسة البعثة، بيروت، ط١: ١٩٩٥م.

١٣. تكوين البلاغة: الشيخ علي الفرج، نشر: دار المصطفى لإحياء التراث، ط ١: قم، ١٣٧٩ ش.
١٤. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، الدكتور: ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، بغداد: ١٩٨٠م.
١٥. جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشمي، نشر: دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط ١: ١٩٩٨م.
١٦. الخطابة وإعداد الخطيب: الدكتور: عبد الجليل شلبي، نشر: دار الشروق، القاهرة: ط٣: ١٩٨٧م.
١٧. الخطابة: أرسطو، ترجمة الدكتور: عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد للنشر: بغداد، ١٩٨٠م.
١٨. الخطابة: الدكتور: نقولا فياض، ط دار الهلال: مصر، ١٩٣٠م.
١٩. شرح الرضي على الكافية: محمد بن الحسن الرضي الاسترابادي، تعليق: يوسف حسن عمر، نشر: مؤسسة الإمام الصادق للطباعة والنشر، طهران: ١٣٨٤ ش.

٢٠.شرح ديوان امرئ القيس الكندي: عبد الرحمن المصطاوي. نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢: ٢٠٠٤م.
٢١.شرح نهج البلاغة: كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني، المطبعة الحيدرية، طهران: ١٣٩٨.
٢٢.شرح نهج البلاغة: هبة الله عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية: ١٩٥٩م.
٢٣.الصحاح (تاج اللغة، وصحاح العربية): إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط٤: ١٩٨٧م.
٢٤.علم المعاني: الدكتور: عبد العزيز عتيق، نشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٢٥.عوالم العلوم والمعارف والأحوال (العوالم): الشيخ عبد الله البحراني، نشر: مدرسة الإمام المهدي، قم: ١٤٠٧.
٢٦.فن الخطابة والتبليغ الإسلامي: الدكتور: شمران العجلي، نشر:

مؤسسة البلاغ، ط١: ٢٠٠٤م.
٢٧.فن الخطابة وتطوره عند العرب: إيليا الحاوي، نشر: دار الثقافة بيروت، بدون سنة الطبع.
٢٨.فن الخطابة: الدكتور: أحمد محمد الحوفي، نشر: نهضة مصر للطباعة، بدون سنة الطبع.
٢٩.الفن ومذاهبه في النثر العربي: الدكتور: شوقي ضيف، نشر: دار المعارف، مصر، ط٦: ١٩٧١.
٣٠.في بلاغة الخطاب الإقناعي: الدكتور: محمد العمري، نشر: دار الثقافة، الدار البيضاء ـ المغرب، ط١، ١٩٨٥م.
٣١.القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي: الدكتور: محمود البستاني، نشر: مجمع البحوث الإسلامية، مشهد: ١٤١٤هـ
٣٢.لسان العرب: العلامة محمد بن مكرم بن منظور، منشورات أدب الحوزة، قم: ١٤٠٥هـ
٣٣.اللهوف إلى قتلى الطفوف: السيد علي بن موسى بن طاووس، نشر: أنوار الهدى، قم سوق القدس.

٣٤.ماهية الفن: مصدق الحبيب، مقال منشور على شبكة الانترنت.
٣٥.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير، دار الكتب العلمية: بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٨م.
٣٦.محاضرات في النثر العربي: الدكتور: حاتم الساعدي، نشر: مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت: ١٩٩٩م.
٣٧.المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، طبع: دار الأمواج، بيروت: ١٩٩٠م.
٣٨.معجم علوم اللغة العربية: الدكتور: محمد سليمان الأشقر، نشر: دار النفائس، الأردن: ٢٠٠٥م.
٣٩.مغني اللبيب: محمد بن يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات مكتبة آية الله المرعشي، قم: ١٤١٠هـ.
٤٠.المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، نشر: دار المعرفة، بيروت، ط٣: ٢٠٠١م.

٤١.من بلاغة الإمام علي: عادل حسن الأسدي، نشر: مؤسسة المحبين: قم، ٢٠٠٦م.
٤٢.المنجد في اللغة والإعلام، الطبعة السادسة والعشرين.
٤٣.المنطق: الشيخ محمد رضا المظفر، نشر: مؤسسة إسماعيليان، قم، ط١٨: ١٤٢٩هـ.
٤٤.الموهبة والموهوبون: الدكتور: مسعد محمد زياد: مقال منشور على موقعه الشخصي من شبكة الانترنت.
٤٥.ميزان الحكمة: محمد الريشهري، الناشر: دار الحديث، قم: ١٤١٦هـ
٤٦.الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات: جماعة المدرسين، قم.
٤٧.نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر: قم، ط٥، ٢٠٠٧م.
٤٨.نهج الخطابة: محمد علي فروغي، ترجمة: الدكتور: صادق إسماعيل، نشر: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١:

٢٠٠٥م.

فهرست المحتويات